قمر في منتصف النهار

ديوان العرب للنشر والتوزيع

اســـــم الكتاب: قمر في منتصف النهار
اســـم المؤلف: جمال عماد الدين
التصنيـــــــف: رواية
الحجـــــــم: 14 - 20
عدد الصفحات: 118
سنة الإصـــدار: 2025
رقـــم الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: 13105 / 2025
الترقيم الدولي: 3 – 184 – 971 – 977 - 978

تدقيـــق لغوي: أريج حسين الجمل
تصميم غـــلاف: رانيا السفوت
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب
للتواصل: dewanalarabegypt@gmail.com
واتساب: 01030502390

قمر في منتصف النهار

رواية

جمال عماد الدين

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

إهداء

ذلك الإهداء إلى كل من ساعدني في هذا العمل، والإهداء الأساسي لجيسكا - وهذا ليس اسمها الحقيقي، هذا ما أسميتها به -هي أكثر من عاونني، وتحملتني، وشجعتني. أهديه إليها، وأنا سعيد أني عرفتها، وأدعو لكِ كثيرًا إلى حين أن نلتقي مرة أخرى. مهما طال الوقت، سيقف القدر في صفنا، وهذا ما أرجّحه. لا تنسيني في دعواتكِ خلال صلواتكِ.

جمال عماد الدين

****

قد لا تنجو من القدر وألاعيبه

وبالتأكيد سيجرك لفواهته حتى تتمكن منك سخريته

لم أتمنَّ يومًا ما حدث، كنت فقط أُرمي الكلمات وأرتقي بالشعور، وأعيش أحلام اليقظة، إيهامًا من نفسي ومن قدري أن ما أردته سوف يأتيني.

ولكن تمكّن مني قدري البائس وأتمّها مثل بدايتها: غرباء.

وكأنما انتظرتُ ظهور قمرًا مُنير في منتصف نهارٍ تشعّ فيه الشمس الحارقة،

أحرقتني الشمس، وبنورها أخفت القمر.

المقدمة

لا يقف القدر في صفك في كل الأحيان، فحتمًا يأتي يومٌ ويخذلك، ويسخر منك، وتتجلى منك سخرية القدر، لم يكن من تمنى يفكر في السخرية، ومن تم السخرية منه نسي التمني من بعدها، فدائمًا تذكر أن تفكر في أسوأ الاحتمالات قبل أن تفكر في أفضلها كي لا يصفعك القدر وتُصدم أنه سخر منك، ولا تطلق العنان لمشاعرك، فبعض من تبادله المشاعر تكون مشاعره مزيفة وكاذبة، وفي الأغلبية العظمى ستنتهي بكسرتك أنت، لا تضع آمالًا كبيرة في مكان لا توضع فيه الآمال من الأساس، فكر ماليًا قبل اتخاذ القرارات، ليس القلب دائمًا على حق، وهذا لا يعني أن العقل دائمًا هو الأحق، بل وحّد رغبتهما، فيومًا ما سيتفق القلب مع العقل على شخص، وثق أنه سيكون الشخص المناسب، ولا تتمادَ في الترهات، وضع ألف حساب لكل شيء، ولكل خطوة قبل اتخاذها، فالحياة لن تتوقف على الأشخاص الذين لا يهمهم ألمك ولا مشقتك، أعطِ الحب لمن يستحق، واسلبه ممن لا يستحق، وحالف القدر يحالفك، فليس القدر دائمًا عليك، وليس دائمًا معك، فهذه هي الدنيا، يومًا معك ويومًا عليك.

(1)

_ أمي، لقد عدت.

مثل كل ليلة، عدت في وقتٍ متأخر من الليل.
تعودت على ذلك الشيء؛ أعود في منتصف الليل، وأضع سماعاتي لأستمع للموسيقى المفضلة، ونوعًا ما أنفصل عن العالم.
تفصلني تلك الموسيقى عن ضجيج العالم، وكل المشاكل التي تسكنني.
فالصراعات التي بداخلي بمثابة نيران موقدة داخل نفسي، وتغلغلت داخل قلبي لتحرقه.
لا أهتم، فأنا أغلقت على قلبي قبل أن يحترق.
لا أنكر، نوعًا ما أشعر بالألم، لكنني تعودت.
وأمي أيضًا تعودت على عودتي كل يوم في منتصف الليل، فهي تعرف أن كل هذا ليس بمحض إرادتي، وأنني أتأخر بسبب عملي.
أنا مثل أي شخصٍ في هذا العالم، يعمل في عمل لا يحبه، ويشعر بالضيق.
لكن ما باليد حيلة، يمارس ذلك الشيء الذي لا يحبه، ويُقيده بسلاسل، ويُكبله لعدد ساعات مفتوح إلى أن ينتهي العمل.

تشعر في تلك الأحيان أنك مثل العبد المُستأجر، وتشعر بالإهانة الكبيرة؛ أنك تبذل جهدًا كبيرًا في شيء لن تستفيد منه، وتأخذ في النهاية أجرًا لا يُذكر.
لكنني تعودت أيضًا.

_ بُني، هل تريد مني أن احضر لك العشاء؟
_لا يا أمي، لست جائع.
_ حسنًا بُني.

يتكرر الموضوع مثل كل يوم، حياة روتينية بحتة مثل التي يعيشها كل الناس، حقًا أشفق على الأطفال الذين يريدون أن يكبروا في السن، حقًا لا يعرفون ما ينتظرهم من ألم ومشقة وحياة روتينية وأيضًا صعبة، لا أرى ملامح جيدة لتلك الحياة، حقًا ما الفائدة؟ لكن لمن نشتكي؟ حتى أنفسنا ضاقت نفسها من كثرة الألم والكتمان، لكن لا من حلول، وأقول كل يوم لنفسي هذا الكلام، ولكن هل يفيد بشيء؟

لا أظن ذلك، لنخلد إلى النوم، سيكون أفضل من التفكير المفرط، فنحن لسنا في مزاج حسن لجلد الذات.

أوه، أرى أنني استيقظت مبكرًا على غير العادة، يا الله الساعة الخامسة، وماذا إن لم أكن عدت إلى المنزل الساعة الثانية عشر مساءً؟ لا بأس، لنستمع إلى موسيقانا، أحب جدًا موسيقتي، تشعرني بما يسكنني، أظن أن تلك الموسيقى تستطيع احتواء جروحي. القصة ليست مثل ما يتخيل كل الناس، بعض الصدمات النفسية بسبب علاقة حب وفشلت، أو مشروع تخرج ولم يتم، أو تخطيط لشيء ولم يحصل، الموضوع أكبر من هكذا بكثير. الحقيقة أنني تلقيت كل الصدمات، فأنا حتى لم أعد في مزاج للشعور، لا أظن أنني بالغت، فلقد فشلت في كل شيء، حتى فشلت في اختيار عمل يناسبني، واخترت عملًا لا أحبه فقط لجني المال. أرى أنني شخص سطحي جدًا، حتى علاقات الحب والزواج لم أجتز اختباراتِها، عاصرت شخصيات كثيرة، وانجذبت لكثيرين، لكن ماذا كانت النهاية؟ تنتهي بنقطة في آخر السطر وتنتهي القصة مثل ما بدأت. ماذا تظن؟

انتهت نهاية سعيدة مثل ما بدأت، عُدنا غرباء. صراحة، أفضل الابتعاد عن الناس، تقربي المبالغ فيه للناس صنع مني شخصًا يحتاج لوجود شخص معي. الآن أنظر إلى حالي، نوعًا ما أكون سعيدًا، فأنا وحدي ولا أحتاج للمساعدة، وأيضًا آكل طعامي وأنام وأعيش مع أمي، أحاول أن أعوّضها عن حياتها، فحياتها أيضًا لم تكن سهلة، فلقد تركنا أبي وتزوج وأنجب أولادًا

آخرين، وهم الآن تحت رعايته، وعلى الأرجح نسي وجودنا، أنا وأمي. أرى أن أمي تكفيني، صحيح؟

حقًا، الكثير يُحزن، والقليل يصنع الفرحة، حتى الابتسامة تخرج بتصنع لكي لا يشعر بنا أحد، فنحن لا نحب أن نظهر ضعفاء.

أوه، يا للهول! أخذني الحديث مع نفسي ونسيت الوقت، سأتأخر.

****

(2)

أمم، يا له من صباحٍ يومٍ مشمس، الشوارع خالية ونظيفة وهادئة، هذا هو الجو المطلوب للمعيشة بدون ضغوط.
أمم، لكنني أعرف أن الشمس المشرقة ستغيب ويحل الليل مجددًا، ويظهر القمر الذي يحمل معه دموعًا وأحزانًا وتفكيرًا يمنع الإنسان من النوم ويجبره على البكاء. لا بأس، لنكمل اليوم كما كل يوم.

وصلت الشركة وألقيت الصباح على سكرتيرتي الخاصة.

_ صباح الخير يا إيفار.
_صباح الخير سيدي.
_ احضري ليّ الاوراق والعقود الجديدة؛ لكي ألقي نظرة عليها.
_ حسنًا، سيدي.

دخلت إلى مكتبي مثل كل يوم وبدأت اتصفح الاوراق والعقود، وأبدأ في عملي مثل كل يوم.

إيفار تطرق الباب..
_ تفضلي، يا إيفار.

_ ها هي الارواق والعقود الجديدة، يا سيدي.
_ شكرًا، يمكنكِ أن تتفضلي الآن.
وقفت أمامي وهي تنظر لي محدقة، وأنا نظرت إلى الأوراق لكي أتصفحها. نظرت لي نظرة بريئة، وهي مبتسمة. أعرف أنها تكون سعيدة عندما نتواجد في مكان سويًا، وأنها تشعر أيضًا بالأمان. وأيضًا أعرف أنها تكن لي بعض المشاعر وتحاول التقرب مني، لكنني دائمًا ما أبني سورًا بيني وبينها، ولا أقبل أبدًا بالتقرب، فأنا تلقيت ما يكفي من الصدمات، فأنا لست قادرًا على علاقة جديدة وتكون النهاية مثل كل النهايات.

نظرت إليها وهي ما زالت محدقة لي.
_ هل هناك شيئًا ما يا إيفار؟
_ لا، لا، لا يوجد شيء سيد مراد.
_ إذن تفضلي، علينا انهاء الكثير من العمل اليوم، هيا.
_حاضر، سيد مراد.

أعرف أن إيفار تحبني، لكن ليس لدي التحمل الكافي لعلاقة وصدمة نفسية جديدة، حتى وإن كان حبها صادقًا. لن أوافق أن أجعلها تبقى معي، فأنا معقّد نفسيًا. هي تراني فقط شخصًا منفردًا بحالي، وأعمل على

نفسي دون صداقات أو علاقات، حتى بدون زواج، لكنها لا تعرف أنها صدمات نفسية، لهذا دائمًا ما أبني جدرانًا بيني وبينها.
لماذا يقوم بفعل هذا؟ هو يعلم أنني أحبه، ويلاحظ، لكنه دائمًا يبني سدودًا تكون حاجزًا بيني وبينه.

لا أعرف أين؟ ومتى أحببته؟

لكنني أحببته. أحب هدوءه، ودائمًا تركيزه على عمله وعلى الهدف المحدد. أراه شخصًا مثاليًا حقًا. رأيت فيه أنه من سيعوضني عن فقدان الكثيرين. فأبي وأمي توفيا في حادث سيارة، وأنا من نجوت. توفيا منذ عامين، ومن وقتها وأنا أعمل هنا في الشركة. صراحة أفتقدهما كثيرًا، وأتمنى لو كانا معي، ما كنت وحيدة الآن.

رأيت في مراد الحنان والطيبة. حقًا، أحبه بشدة. منذ أن رأيته لأول مرة وأنا منجذبة إليه، لكنني لا أستطيع التقرب منه أبدًا. لا أعرف حقًا ما يَخفي وراءه، لكنني أراه شخصًا ناجحًا وجميلًا، وأريد أن أحس بالأمان. أريد أن يتواجد معي ذلك الشخص الذي أحبه حقًا. لا أنكر أنني أحب البقاء معه في مكانٍ واحد، حتى لو لا نتحدث، وأشعر أيضًا بالأمان، مع أنه لا يبالي بوجودي من الأساس. لكنني أريد أن أشعر به في حياتي، وأنه مهتمٌ بي، وأنه حقًا يقدّر وجودي وجهودي لكي أتقرب منه.

لا أعرف لماذا دائمًا يبني أسوارًا بيننا، ويمنع التواصل أبدًا إلا في نطاق العمل فقط. لا أعرف ما خطبه، لكنني أظن أنه يريد أن ينمّي حياته العملية أكثر، ولا ينظر إلى خطوة الارتباط الآن. حقًا، أشجع تلك النماذج من الشباب، ولكنني ما زلت لا أعرف ما خطبه. هل هناك أخرى تسكن قلبه ويحبها؟ إذن لماذا لا يخبرني؟

هو يعلم أنني أحبه. إن كان هناك أخرى، فليخبرني لكي أحاول أن أتخطى وجوده. لكنني أرى أنني لن أستطيع تخطي وجوده، فأنا حقًا أحبه. رأيت حياتي كاملة معه. لا أعرف ما ينتظرني في المستقبل، لكنني أتمنى أن أكمل حياتي معه.

****

(3)

أمم، حقًا أحب كثيرًا ذلك المكان، أحب أن أجلس على الأرض العشبية وأنا أستند على شجرة أمام البحيرة. حقًا، ذلك الجو المثالي الذي يلهمني لأكتب في كتابي. حقًا لا أعرف، ولكنني أشعر بعض الأحيان بانجذاب نحو إيفار. صراحة، على قدر ما أحاول أن أصنع جدرانًا تفصل بيني وبين تلك العلاقات، ولكن على الصعيد الآخر أشعر بأنني أحتاج وجود شخص يحبني في حياتي. لكن أحاول التغلب على نفسي وإلغاء تلك الرغبة.

أعرف أن كل الأشخاص ليسوا مثل بعضهم، لكنني أخاف أن أتعلق بها ثم أهجرها أنا، لمجرد أنني أريد ملء فراغٍ بداخلي. حقًا، على قدر حبي للوحدة والعمل وحدي، أيضًا أشعر بالألم منها، لكن أحاول التماسك. فأنا من اختار تلك الحياة، لكن أظنني أريد أن أعطي إيفار فرصة.

حقًا، أشعر ناحيتها ببعض الإعجاب. أفكر بأن أتخذ تلك الخطوة، ستسعد أمي كثيرًا، فهي تعلم أنني لا أفكر في تلك الخطوة، حقًا.

لماذا أشعر بالسعادة؟ هل أحببتها حقًا؟

لا أعرف، ولا أعرف ما الذي يخفيه عني قدري أيضًا. فالحياة عبارة عن اختبارات، ويجب اجتيازها. حسنًا، لنعطها فرصة على أمل ألا تكون مثل الآخرين. حقًا، لم ترتسم الابتسامة على وجهي منذ فترة.

نوعًا ما، أرى إيفار فتاة مناسبة، خاصةً وأنها وحيدة مثلي، وكلانا يحتاج إلى أن يشعر بأن هناك من يهتم به. أتفهم مشاعرها، وأتفهم تفكيرها في أنني من الممكن أن هناك أخرى تسكن قلبي، لكن يبدو أنها هي من ستسكن قلبي. لا أعرف حقًا!

لكن يبدو حقًا أنني أحبها. نوعًا ما، أرى أن هذا وقتٌ مناسب لبدء فصلٍ جديد في قصتي، ويبدو أنه سيكون نوعًا ما فصلًا مشرقًا. أتمنى ذلك حقًا.

....

ها نحن في يومٍ جديد، مفعم في بدايته بالنشاط، وفي آخره نشعر بالتعب.
لكن حقًا، ما يجعلني أبقى في عملي هو وجود مراد.
على قدر ما أشعر بأنه لا يشعر بوجودي، حتى أنني أحب البقاء معه، واستمراري في عملي ذلك، مع أنني لا أحبه هو مراد من الأساس.
أوه، يجب أن أذهب، لقد تأخرت.

يومها، وصلت إلى العمل وجلست على مقعدي لأبدأ عملي. دخل مراد وألقى عليّ الصباح مثل كل يوم.

_ صباح الخير يا إيفار.
لكنني كنت منذهلة من ابتسامته المرتسمة على وجهه. حقًا، تلك الابتسامة التي جعلتني أذوب في ملامحه، وأغوص في داخل ثنايا قلبي، وأسمع صوت دقاته يرتفع من شدة فرحتي. إنني رأيته مبتسمًا لي، وحين رآني مبتسمة، ابتسم أكثر. وفرحت جدًا عندما طلب مني أن ننهي العمل مبكرًا لأنه يريد أن نتعشى سويًا.

_ إيفار.
_نعم، سيد مراد.
_ لا تقولي سيد مراد يكفي مراد، أريد منكِ أن تنهي عملك مبكرًا؛ لأنني أريد أن اعزمكِ على العشاء؛ لأنني أريد التحدث معكِ في موضوع ما هكذا.

بدون تفكير وافقت، وكنت عائمة فى بحور السعادة وكأن قلبي يقول أخيرًا.
حقًا، منذ أن بدأت عملي في الشركة، لا يتحدث إلا في نطاق العمل فقط، واليوم يقول لي: "أعزمكِ على العشاء". صراحة، سعدت جدًا، وبين كل ذلك،

في وسط حديثه، كنت أتوه في ملامح وجهه الجذابة. أحب كثيرًا أن أنظر له، أشعر أنني في قمة السعادة.

حقًا، أغوص وقتها في مخيلتي، وأرسم له صورة جميلة أكثر فأكثر، وتزيد دقات قلبي أكثر. أشعر نحوه بانجذاب أكثر كلما رأيته.

حقًا، أظن أنه سيقول لي شيئًا بخصوص مشاعره تجاهي، فهو لا يطلب مني أن أجلس معه خمس دقائق للعمل فقط. إذًا، فلنبدأ فصلًا جديدًا.

****

(4)

انتهى دوام العمل، وكانت إيفار تنتظر انتهائه بفارغ الصبر. خرجت من مكتبي وأخذتها، وذهبنا إلى مطعم هادئ وأجواؤه هادئة، وهذا ما يناسبني كي لا أتوتّر. جلست أمامها، لكن لا أعرف ماذا جرى لي؟!!

شردت داخل ملامح وجهها، ولأول مرة ألحظ جمالها. حقًا، فتنتني... جميلة. ظللت لبضعة لحظات محدقًا بها، ونبضات قلبي تزداد سرعتها كثيرًا، وأشعر بالسعادة. وبغير إرادتي، ارتسمت الابتسامة على وجهي، ولم أفق إلا وهي تهزّني وتناديني.

_مراد، مراد في ماذا كنت شارد؟
_ لا شيء، لا شيء.
_حسنًا إذًا في ماذا تريدني؟
_ إيفار، أريد أن أقول لكِ شيئًا.

لم أعرف في تلك اللحظة ماذا أقول، أنا أعرف أنها تحبني، لكنني كنت تائهًا... لماذا؟!

لا أعرف، لم أكن أعلم ماذا أقول حقًا!!

كنت أتوه في ملامح وجهها الجميلة، وأغوص في التفكير، حتى أخذت قراري... واعترفت لها.

_ إيفار، لا أعرف حقًا ماذا أقول، لكن اشعر بأحساسٍ غريب، اشعر أنني أحبكِ، لا أعرف أين؟ ومتى؟

لكن كنت أخشى أن اقول لكِ، أنتِ تظنينني فتى ينظر إلى حياته العمليه، لكنني مملوء بالتعقيدات النفسية، وأخاف أن تنتهي الحكايه مثل كثير قبلها، وأخاف أيضًا أن كان حبك صادقًا أن يكون فقط مجرد اعجاب لملء الفراغ الذي بداخلي، اتفهمينني؟

_مراد اتفهمك بالتأكيد، وأنا أيضًا أحبك، وسأقف بجانبك فأنت من أحببته حقًا وبكل صدق وأنت تعلم أنني وحيدة، وأريد بقائك بجانبي، اتعدني بذلك؟

_ اعدكِ أنني لن اتركِكِ أبدًا، وسنكون سويًا حتى نهاية العمر.

كانت وقتها تغمرني السعادة، وقلت: إنها بداية فصلٍ جديد في حياتي، فصلٌ مشرقٌ وجميل، تبدأ فيه علاقة جديدة وصادقة، علاقة اتحاد القمر والشمس، والليل والنهار، وتعاقب فصول السنة، فلا يصبح هناك فرق بين فصلٍ وآخر.

لكن حقًا، لا أستطيع إخفاء خوفي مما يخفيه القدر، لكنني أظن أن إيفار ستعوضني عن كل شيء، وأنها ستملأ فراغي وتملأ حياتي بالكامل.

....

أوصلني في يومها إلى المنزل، لا أعرف ما الذي دفعني لفعل ذلك؟

لكنني احتضنته قبل أن يرحل، كان يقف شاردًا لا يعرف ماذا يقول، لكنني كنت أسمع ضربات قلبه المتسارعة، وأحسست بالسعادة التي تغمره.
وقلت له: أحبك مراد.
سعدت جدًا عندما قال لي: وأنا أيضًا أحبكِ يا إيفار.

شعرت أنني ملكة يومها، شعرت أنني قد تُوِّجت، ووُضع على رأسي التاج، وأنني جلست على العرش.
حقًا، لم أكن أعرف أنه يكن لي تلك المشاعر، ولم أكن أعلم أيضًا أنه تلقّى صدمات كثيرة.
لا أعرف حقًا، من تلك التي تقوم بجعل أحدهم يتعلق بها ثم تهجره؟!

لكنني لن أهجره أبدًا.
لا يوجد أحدٌ يحب ويهجر.

حقًا، سعدت جدًا عندما صارحني بمشاعره تلك، وشعرت أنني في مأمن، وأن هناك من يحميني، وأيضًا يمكنه أن يضحي بحياته لأجلي.

قمر تطرق الباب..

_ تفضلي بالدخول ياقمر.
_ اخبريني، ماذا حدث معكِ اليوم؟
_لن تصدقي ياقمر، ماذا اخبرني مراد.

قال لي أنه يحبني، سعدت جدًا حقًا أنه يكن لي مشاعر مثلما أكن له.

_ حقًا سعدت لكِ عزيزتي، أتمنى لكِ السعاده حقًا.

قمر صديقتي، نعيش سويًا في نفس المنزل، حقًا ساعدتني كثيرًا في حياتي، كانت سببًا كبيرًا في أن أتعالج من الاكتئاب، بسبب وفاة والداي. حقًا لن أستطيع رد جميلها على حقًا تلك هي الصديقة الحقيقية. أحبها كثيرًا، لا أراها صديقتي، أراها أختي، فهي فعلت أشياء حقًا لو كانت عندي أخت لم تكن لتفعلها من أجلي.
في بعض الأحيان، أشفق على قمر أيضًا، فهي والداها أيضًا متوفيان، وتزوجت في سن صغيرة بسبب ضغط والدها عليها، لكنها انفصلت عن زوجها عندما علمت أنه لم يسافر لكي يعمل، بل سافر وتزوج غيرها.

حقًا، على قدر ما كانت لا تحبه، لكنها حزنت كثيرًا، حزنت على نفسها والوقت الذي بذلته مع شخص لا يستحق ذلك. كانت تعامله معاملة حسنة، مع ذلك كان دائمًا ما يقابلها بالإهانة.

حقًا سعيدة أنها تخلصت من ذلك الشخص.
أوه، الوقت تأخر، يجب أن أخلد للنوم.

****

(5)

يومًا مشرق، حقًا لم أفق منذ فترة طويلة وأنا مبتسم، حقًا ليلة الأمس كانت بمثابة أفضل ليلة في حياتي، بل هي أفضل ليلة في حياتي. أوصلت إيفار وأمام منزلها اندفعت إليّ واحتضنتني، حقًا كنت ساكنًا لكنني كنت في قمة سعادتي.
ليلة أمس كنت سعيدًا جدًا لأنني معها، وبما أن اليوم يوم إجازتي، فكرت في أن أخبر والدتي، لأنها ستسعد كثيرًا بذلك الخبر، وأيضًا لأخبرها بأني سأحضر لها إيفار غدًا بعد دوام العمل لتتعرف عليها.

صراحة لم أكن أتوقع ردّ فعل والدتي، لكنها بكت من شدة فرحها، لأنها كانت حزينة جدًا من وحدتي، وتعجبت من إيفار، تعجبت كيف لأحد أن يستطيع لفت أنظاري واختراق جدران قلبي.
كنت متوترًا جدًا وأنا أقول لوالدتي.

_ أمي.
_نعم بُني.
_أريد اخبارك بشيء ما.

_ماذا عزيزي؟ هيا اخبرني بما يجول فى خاطرك.
_ هناك فتاه أُعجبت بها، وهي أيضًا معجبة بي، وأخذتها ليلة أمس لمطعم وأكلنا سويًا، وصارحتها بمشاعري، وقولت أن اعطيها فرصة وجئت لاخبركِ.
_حقًا بُني افرحتني جدًا، لا تعرف مدى سعادتي الآن.
_ اتفهم سعادتك تلك، لكن لماذا تبكين؟!
_من شدة فرحتي بُني، لا أستطيع وصف تلك السعادة التي تغمرني.

صراحة سعدت جدًا لأن أمي الابتسامة لم ترتسم على وجهها منذ سنوات.

بعدها ذهبت الى البحيرة، وجلست ووضعت ظهري على الشجرة، وفتحت كتابي لاكمل كتابته وشردت بذهني وتخيلت إيفار، لا أفهم لماذا أفكر فيها كثيرًا.
ثم أفقـتُ وأردتُ أن أكتب فيها شعرًا، لم أكن أعرف ماذا أصف فيها، فأنا أعشق شكلها، وشكل وجهها، وشعرها الناعم الذي يتطاير مع الهواء، وجهها الملائكي الجميل، أشرد وأنا أنظر لها، وأشرد في عينيها تلك ذات اللون الأخضر. كتبت وقلت:

عيناكِ تلك أم قمران
أراني تائهًا، لكن عيناكِ تنيران لي الطريق
وجدت فيكِ الحُلو وما أحلاه
عيناكِ سأحرة تجعل لساني عاجزًا
أعجز عن وصف ما أراه من جمال
فالعيون بحر، وأنتِ أغرقتِني في عيناكِ

....

استيقظت وأنا متحمس، سأأتي بإيفار لترى والدتي، صراحة لا أعرف ماذا ستفعل أمي عندما تراها؟!

أظنها ستعانقها عناقًا شديدًا، لا يهم، أنا ذاهب. وصلت ولم أكن أستطيع وصف ما أراه من جمال، لا أعرف هل تصبح جميلة كل يوم، أم عين المُحب من تراكِ جميلة؟

رأيت شعرها الناعم، شردت في عينيها، وشردت مع كلمة "مراد" التي دخلت أذناي وكأنها أجمل مراد سمعتها في حياتي.

_ مراد!!
_ نعم، يا إيفار.
_في ماذا شردت؟

_ شردت في عيناكِ تلك الجميلة.

أدارت وجهها خجلًا وأحمرت وجنتاها، ازدادت جمالًا على جمالها.

_ أتخجلين؟ حسنًا آسف إذًا، أريدك اليوم بعد الدوام لتتعرفي على والدتي.
_حقًا مراد سأتعرف على والدتك؟
_ بالتأكيد، فهي تريد التعرف عليكِ.

سعدتُ عندما أخبرتها أنني سأعرّفها على والدتي. دخلتُ إلى مكتبي وبدأت العمل، وصراحةً لم أستطع العمل بكفاءة يومها، فأنا كنت شاردًا طوال الوقت في إيفار. لا أعرف ما سرّ ذلك الحب السريع؟!

لا يهم، انتهى الدوام وأخذتُ إيفار وذهبتُ بها إلى والدتي. بمجرد أن رأتها والدتي عانقتها. سعدتُ أنَّهما متفهمتان من البداية. جلسنا وتحدثنا وتعرّفت على أمي.
وإيفار، صراحةً، في تلك الأجواء كنت أرى ابتسامتها وأشرد، لأذهب إلى عالمٍ آخر، لا أعرف، صرتُ أشرد فيها كثيرًا!!

لكن بحق، لقد فتنتني تلك الفتاة. أظن أنني لن أندم على اختياري لها. وفي لحظة، وجدتها تنظر إليّ وتبتسم، فابتسمتُ أكثر لها، واقتربت من أذني وهمست بكلمة "أحبك".

لا أعرف، لكنني سعدتُ، وزادت نبضات قلبي وازدادت سرعتها، حتى صرت أسمعها من مكاني، وشردتُ مجددًا إلى عالمي الخاص، العالم الذي يحملني أنا وإيفار وحدنا.

****

(6)

لا أعرف كيف تبدّل الحال حقًا، صرتُ مبتسمًا في أغلب الوقت، لا أعرف ما السر في ذلك؟!
ودائمًا ما أفكر في إيفار، لا أفهم حقًا؟
هي لم تكن في بالي من الأصل، لكنني لم أستوعب ليلة البارحة عندما جلست مع أمي وحدثتني عن إيفار، لم أفهم قصدها.

_مراد.
_ نعم، يا أمي.
_أريد أن أحدثك قليلًا يا عزيزي.
_ تفضلي أمي تحدثي.
_ عزيزي، دائمًا كان يقول جدك لي: توقعي الأسوأ دائمًا.
ولماذا يجب أن نتوقع الأسوأ دائمًا؟

حتى لا ننصدم مما ينتظرنا في نهاية المطاف، سواء أكانت نهاية حزينة أو سعيدة. لا تتوقع دوام الحياة سعيدة، فلو دامت سعيدة ما كانت حياة أو دنيا، لكانت جنة. فكن على استعداد، ولا تتوقع أفضل الاحتمالات حتى لا تنصدم في النهاية.

_ لماذا تقولين هذا يا أمي؟
_ لا تنشغل كثيرًا بكلامي، نفّذه وحسب.

لا أعرف هل من الممكن أن تتركني إيفار وأُصاب بخيبة أملٍ جديدة، لا أعرف حقًا؟
الموضوع شتّت تفكيري جدًا، لكن أنا متأكد من أن إيفار تحبني وستبقى معي وستصير زوجتي قريبًا.
لا أعلم حتى إنني صرت أدعو بها في الصلاة وأقول:
استودعتك حبي يا الله، فارزقني بالتي أحبها قلبي في حلالك، وإني تركتها لرضاك، فاجعلها من نصيبي، واجعلني من نصيبها، وارزقني الجنة وإياها، وأبقِ على حبي في قلبها، وزدها محبة لي، وزدني محبة لها، اللّٰهُمَّ اجعل حبنا صالحًا لا يتجه بنا لعصيانك، ونحن نحاول أن نرضيك.

علمت بشأن هذا الدعاء من أحدٍ عزيزٍ جدًا وأحبه جدًا، أتمنى له التوفيق في حياته، وأتمنى أيضًا أن تصبح إيفار من نصيبي، لا أعلم سر انجذابي لها، لكن كل ما صرت أعرفه الآن أنني أحبها... أحبها، هي فقط، هي التي سكنت قلبي وأدخلت إليه السعادة، وأعادت إليه الإشراق، لا أعرف، ولكنها نجحت في لفت نظري لها في النهاية، أتمنى بقائها معي بقية العمر.

لا أعرف كيف تبدل حال مراد ابني، لا أعرف، أنا سعيدة لأجله، لكنني خائفة أيضًا، أخاف أن يأخذ مراد صدمة أخرى في حياته، لا أثق من اكتمال علاقتهما.

عندما كان مراد يحكي لي عن إيفار، كنت أرى لمعة في عينه، قلت نوعًا ما يحبها، لكنني أخاف لأنه قال إن والديها متوفيان، وحيدة بمعنى أحرى، أخاف أن يوهمها عقلها بحب مراد، وفقط يكون مجرد أداة يملأ بها فراغ الوحدة، وعدم الشعور بالأمان، وعندما تستقر الأوضاع، تبحث عن غيره. وأخاف أيضًا أن يكون مراد يراها أداة أيضًا لتسد فراغ الوحدة، وتسد الفراغ العاطفي المجوف منذ سنوات، لا أعرف، لكنني أتمنى له من كل قلبي أن يعيش حياة سعيدة، وأن تكتمل علاقتهما ويكون حبهما صادقًا. أرى في عيونهما لمعة جميلة، وهي أيضًا فتاة طيبة، لكن من كثرة الأشياء السيئة التي رآها مراد في حياته، أخاف عليه من أن تصيبه أشياء أخرى.

أشفق عليه كثيرًا، فهو عندما قرر أن يحب، شاء القدر أن لا تصبح تلك حبيبته نصيبه، بل لتكون ابتلاؤه، وسخرية القدر منه.

لا ألقي لومًا عليها، فوالدها من أرغمها على ذلك، وتزوجت رجلًا كبيرًا في السن، فخلف من ذلك أن مراد دخل في نوبة اكتئاب حاد، لم يستطع أي طبيب معالجته، حينما أدرك أن الاكتئاب صار جزءًا منه، تقبل الأمر، واختار التعايش معه.

على قدر ما أسعد من ظهور السعادة والابتسامة على وجه مراد، على قدر ما أخاف تلقيه صدمة أخرى، تجعله يعيد ذلك الوجه الشاحب، وانعدام المشاعر، وقفل أبواب العلاقات، والانطوائية مرة أخرى.

حقًا لا أتمنى ذلك مرة أخرى، أتمنى أن تعوضه إيفار، ويكون حبها صادقًا حقًا.

****

(7)

استيقظت في ذلك الصباح، قلبي ينبض كثيرًا، لا أعرف حقًا لكنني استيقظت وأنا أفكر بإيفار، كنت أحلم بها في منامي، فكرت بها كثيرًا، واليوم إجازة من الدوام، قمت بالاتصال عليها، ولا أعرف ماذا سأقول؟!

_ صباح الخير يا عزيزي.
_ صباح الخير يا إيفار، أريد إخبارك بشيء.
_ تفضل يا مراد، تحدث.

لا أعرف في ماذا كنت سأتحدث من الأساس، كنت متوترًا جدًا، وكنت شاردًا، ولم أفق إلا عندما أخبرت إيفار أنني أريد خطبتها، وهي تصرخ في سماعة الهاتف، سعدت كثيرًا لسعادتها.

_ إيفار، أنا... أنا أريد خطبتكِ.
_ حقًا مراد، هل تتحدث بصدق؟ لا تمزح معي، هل أنت صادق حقًا؟!
_ نعم، حقًا يا إيفار، أريد خطبتكِ.
_ متى سنحدد ميعاد الخطبة؟ وأين؟ وكيف؟
_ كفى... غدًا، وأنا حجزت مكانًا هادئًا، وسيحضر فقط أقاربنا وأصدقاؤكِ وهكذا.

_ حقًا؟ لماذا لم تقل لي يا مراد؟ سأذهب لكي أجهز نفسي، وداعًا عزيزي، أحبك كثيرًا.
_ وأنا أيضًا أحبك.

صراحة لا أعرف ما الذي دفعني لهذا، لكنني حقًا أريد أن يكون بيني وبين إيفار علاقة رسمية، وليس مجرد اثنين يحبان بعضهما، أريد أن أتقرب لها، أريد أن تكون لي، وأن تكون من نصيبي وقدري، لا أنكر خوفي من الماضي، الذي يتسلل لدماغي ليخبرني أن ماضيك هو حاضرك، هو المستقبل القريب.
أريد أن ألغي تفكير الماضي، وأن أعجل في خطواتي كي لا أتلقى صدمة أخرى، وأنا أيضًا فعلت هذا بدافع حبي لها، فأنا حقًا يبدو في عينيّ لمعة الأمل والمحبة لها، حتى إنني صرت لا أفكر في شيء غيرها، حقًا أحبها كثيرًا، أتمنى من الله أن تكون لي، وألا أُصاب بخيبة أمل جديدة.
هيا، سأبدأ في تجهيز نفسي، أفضل من التفكير المفرط.

....

صراحة لا أنكر فرحتي المفرطة تلك، سواء أكان حينما قال لي مراد إنه يريد خطبتي أو يوم الخطبة، لكن لا أعرف ما ذلك الإحساس الذي تسلل إلى داخل قلبي، وجعلني أشعر بالضيق والرعب من المستقبل، والرعب من أن يحدث شيء لمراد بسببي.

لا أنكر أنني حقًا أحبه، لكن لا أعرف ما ذلك الإحساس، وحقًا لا أعرف لماذا لم أسعد عندما رأيت مراد سعيدًا؟!

شعرت أنني أفكر في شخص آخر، ولكنني لا أعرفه، ولم أره، ولا أعرف حتى شكله.
كان مراد سعيدًا جدًا، لا يظهر ذلك كثيرًا، لكن كان ظاهرًا عليه من توتره والابتسامة، ورغبته الدائمة في أن يصبح بجانبي.
لا أنكر، أصبح مثل الطفل متعلقًا بي لأبعد الحدود، هذا ما كنت أريده، لماذا الآن أشعر بذلك الشعور؟

الغريب على قدر ما أحبه، لكن لم أفرح، لماذا؟ لا أعرف، لماذا ذلك الشعور؟
أخاف جدًا على مراد أن يتلقى صدمة أخرى بسببي، لن أتحمل أن أراه في حال سيئة بسببي، لكن لا أظن، فأنا أحبه.
يا قلب، هذا مراد الذي طال حبه، الذي أحببناه منذ أن رأيناه، لا تضعني في محل تشتت.
أنا كنت سعيدة عندما علمت بحبه لي، لا تقل إن بعد ما أخذه من خطوات لأجلي، سنحب غيره، وإنه كان مجرد ملء فراغ الوحدة بداخلنا.
لا أريد ذلك، فهو من أحبه قلبي، ومن مال إليه قلبي، هو الأول والأخير، وسيظل الأول والأخير.

فأنا لن أكون سببًا في تعاسته، وأنا أعلم أنه يحبني حقًا وبصدق، فأنا لم أرَ مراد هكذا أبدًا، مثل الطفل الذي يريد من يبقى بجانبه ولا يتركه، أن يحميه، أن يساعده، أن يحبه.

حقًا مراد شخص جميل وطيب، ويستحق الحب، وأنا لن أتركه.

كفى خرافات، مراد هو حبيبي.

****

(8)

مراد...

حقًا إيفار تحبه ويحبها، لم أمسك قلمي لأكتب في مذكراتي منذ فترة. عندما خرج مراد من حياتي انتهى كل شيء، وتوقفت حياتي عند تلك النقطة، وكأنها نقطة الصفر التي من عندها لا نزيد ولا نقل. انتهت حكايتي مع الحياة، لأنه كان حياتي.

لا أنكر، كنت أحبه كثيرًا، وما زلت أحبه، وعاد إليّ الشوق والحنين أكثر عندما سمعت اسمه من إيفار، وعلمت أنه يحبها. لا أنكر، كان حب طفولتي، وهو حب عمري بالكامل.

لكن لن يُجدي شيء، فهو صار خطيب صديقتي. لا أنكر، حزنت، لأنني كنت أتمنى أن أكون أنا وهو سويًا. لكن مراد هو نصيب إيفار، تستحقه. هو شخص جميل وطيب، وعندما يحب يتعلّق.

لكن أخاف أن يحدث شيء كما حدث معي. أنا من غدرت بمراد. كان يجب أن أذهب معه، حتى لو كنت سأهرب من أبي كي لا يزوجني لذلك الرجل الغبي. كنت سأهرب مع حب حياتي، على الأقل، كان سيكون أكثر شخص يخاف عليّ، كان سيحافظ عليّ. لم أبكِ منذ فترة...

لن تترك لك الحياة كل شيء. يجب أن تنزع منك شيئًا، وليس أي شيء، بل أكثر شيء أحببته. حتى تصبح محطّمًا ومُدمرًا من الداخل، ويصير هناك جزء في قلبك مجوّف، بل قلبك بالكامل. ويبقى المكان الذي حمل حب ذلك الشخص خاليًا، مثلما قال محمود درويش:

ويبقى مكانك فارغًا.
وفراغك أجمل الحاضرين.
ربما لم يكن شيئًا مهمًا،
لكنه كان قلبي.
في غيابك لا ينقصني سوى الكون.

حقًا، في غيابه لا ينقصني شيء سوى الكون. لا أشتاق لأبي مثلما أشتاق لمراد. لم أستطع إمساك عيوني عندما رأيته في حفلة الخطوبة. بكيت، لأنني أرى حب عمري يجلس بجانب أعز صديقاتي. كنت أستحق أن أجلس مكانها، ليس حقدًا عليها، لكنني أحببته.

أنا من غدرت به، وكأنني طعنته في رقبته. كان مجوّفًا حقًا. تركت له جرحًا كبيرًا، لم يستطع الزمن أن يلتئمه. لكن حب إيفار قد شفاه. على قدر ما أحبه وأتمنى أن يعود الزمن كي يكون لي، لكن أتمنى من إيفار أن تعتني به، وتبقى معه، وتحبه، فهناك من كانت تحبه قبلها. مبارك صديقتي.

عزمت إيفار على الرحيل، لا أعلم، لكنها تقول إنها تريد أن ترى مكانًا جديدًا، تجلس أمام البحر وحدها، وتشتكي همومها. قلت لها: أريد أن آتي معكِ لنكون سويًا، لكنها رفضت. لا أعلم، لكنني أشعر بضيق واختناق وألم في قلبي منذ رحيلها.

تشعر أن وجودها مثل وجودك في الجنة، ورحيلها هو زوال الجنة.

لا أعرف ما دفعني في ذلك الحين لفعل ذلك، لكنها حين قالت إنها راحلة، هممت باحتضانها وأنا أبكي مثل الأطفال.

_ مراد، سوف أذهب يومين في رحلة وحدي. أريد أن أستنشق هواءً منعشًا، وأنا وحدي على الرمال أمام البحر.
_ وتتركينني وحدي؟
_ هما فقط يومين يا مراد، ليس عامين.

احتضنتها جدًا وأنا أبكي، ولم أكن في وعيي، حتى أنني قلت لها: "يا أمي".

_ لا بأس، سيكون كل شيء على ما يرام، لا تقلق، سأعود بعد يومين، صدقني.
_ لا تتأخري يا أمي، سأشتاق إليكِ كثيرًا.
_ حسنًا بُني، لا تقلق.

أحب كثيرًا أن أكون بداخلها، أحبها أن تضمّني لها. أشعر بأحضان أمي وهي تضم الباقي من مشاعري المترامية في بحور اليأس داخل حضنها. أستمع لضربات قلبها التي تنبض باسمي. حقًا أحب إيفار، لا أنكر. هما يومان بمثابة عامين من العذاب.

لا أنكر اشتياقي لها. هي بالنسبة لي مثل الشمس في نهاري، تنير لي الطريق، والقمر في ليلي، أتأمل جمالها المفرط، والنجوم في سماء قلبي، تزينه بحبها.

هي من أعادت لي الحياة، أعادت لقلبي النبض. فهي صاحبة أول نبضة حب حقيقية بعد "قمر" ملأت أحشاء قلبي.

لم ترتسم على وجنتي الابتسامة إلا عندما صارت في حياتي. دخولها جعل كل شيء مختلفًا، جعل الحياة أفضل في عيني، جعلتني أعيش في جنة على الأرض.

هي جنتي. ولو كانت نارًا ستحرقني، لكنت رميت نفسي بداخلها، على أن أكون بعيدًا عن أحضانها.

****

(9)

عندما علمت أن إيفار سافرت، علمت أن مراد سيذهب للمقهى المعتاد الذي يجلس فيه منذ أن عرفني، تعمدت أن أذهب إلى هناك، اشتقت له كثيرًا، اشتقت لتأمل ملامحه الجادة، لشخصيته الغامضة، لحبه، لحنينه، وطيبته. كان يحب الذهاب للمقهى وقت غروب الشمس. ذهبت ووجدته يجلس على ذلك الكرسي الذي لم يتغير أبدًا، ويشرب قهوته الفرنسية مثل عادته، كان يحبها مني دائمًا. لا أعرف ما الذي دفعني لأجلس بجانبه وألقي التحية عليه؟!

_ كيف حالك يا مراد؟

فعل مثل ما يفعل دائمًا، ذلك الصمت الذي لا تفهمه، أهو صمتٌ عقابي أم أنه لغة تعامل؟ أم أنه صمتٌ تتلذذ له الروح والبدن؟ ألقيت عليه التحية مرة أخرى.

_ كيف حالك يا مراد؟
_ حالي جيد، في أسعد أحوالي.
_ دائمًا. كيف حالك مع إيفار؟

_ جيد جدًا لدرجة لن تتخيليها، فأنا أحبها مثلما لم أحب أحدًا قط.

تلك الكلمات دخلت على قلبي مثل الأشواك وهي تنغرز بداخله، لا أعرف ماذا أقول؟ وماذا أفعل؟

شعرت بالغيرة من إيفار، وهي تأخذ حب عمري مني بتلك السهولة، بكيت أمامه، فأنا أشتاق له وأشتاق لعناقه الجميل الذي يخرج بي من الدنيا وما فيها ويدخل في قلبي المليء بالحنان. رآني أبكي، اقترب مني ووجدته يضمني إليه، لأحضانه التي لطالما اشتقت لها.

_ لا بأس، لا تقلقي، أنا بجانبك. أسامحك، لكننا من اليوم أصدقاء فقط، فأنا أحب إيفار.

_ حسنًا يا مراد، أنا راحلة.

_ حسنًا، انتبهي لنفسك، وداعًا.

شعرت بالغيرة جدًا من إيفار، أخذت مني أفضل شيء في حياتي.

لكن لن أكون سببًا في عيشها حياة بائسة مثل حياتي، فهي صديقتي، أتمنى لها حظًا سعيدًا لا يشبهني أبدًا.

....

رأيت قمر، رأيت في عيونها نظرة الألم والخوف والاشتياق. لا أعلم، على قدر ما أحب إيفار أحسست بنبضة في قلبي تقول لي: ابقَ معها، إنها تحتاج لك، وما زالت تحبك.

رأيتها تبكي، لم أتحمل رؤيتها تبكي أمام عيني، ضممتها لي مثلما سبق كنت أضمها وأعانقها عندما تبكي لأطمئنها وأجعلها تشعر أن كل شيء سيكون على ما يرام، لكن تلك المرة ليست مثل كل مرة، فهي آتية بخيبة الأمل وهي تراني أحب أعز صديقاتها.

أعلم أن كل ما فعلته ليس بمحض إرادتها، لكنني أحببتها حقًا، لا أستطيع وصف الشعور...

كنت أحتاج لها، اشتقت لها، كل الأوقات كانت تمر وأنا أحتاج لها، على قدر ما فعلته كنت أحتاج لها، كنت أنتظر مجيئها لي، وأن تضمني وتقول لي: لا بأس، أنا هنا، كل شيء سيكون على ما يرام.

لكن لم يصبح أي شيء على ما يرام، أصبح كل شيء سيئًا، حياتي سيئة، العمر الذي ضاع في حبها...

لكن لا أعرف ما يخفيه عني القدر، هل يمكن أن عودتها اليوم تعني أن قلبي سيحن إليها مجددًا؟ لا، لا، لا، أنا أحب إيفار.

صحيح يا قلب؟

أجبني، لماذا لا ترد علي؟

لا أعرف إحساسي الآن، فكل تلك المشاعر في حالة لا يُسرى لها، العين تبكي، والقلب يشعر بالألم، وأحتاج إلى إيفار، اشتقت لها.
أنا سعيد جدًا، هي آتية غدًا، أخيرًا، كانوا يومين بمثابة عامين، أريد أن أحضر لها مفاجأة كبيرة جدًا، سأحضر لها عقدًا وخاتمًا من الألماس وبعض الأشياء التي تحبها، لا يغلى عليها شيء، فهي أخذت قلبي، أغلى ما لدي، بعد أن أخذت ذلك الشيء لن يغلى عليها أي شيء، فهي حبيبة الحاضر والماضي والمستقبل.
أتمنى من الله أن يجعلها لي، ولا يجعل عيني ترى الحزن بسببها أبدًا.

****

(10)

لا أعرف ماذا دفعني لفعل ما فعلته، لكنني ذهبت لوالدة مراد، ذهبت لمن كانت ستكون والدتي في يومٍ من الأيام، فهي والدة حبيبي، وما زال حبيبي، ذهبت لها ولم أرَ السعادة على وجهها، لا أعرف لماذا؟
فهي الآن، ولدها في حالة يُسرى لها جدًا بوجود إيفار. استقبلتني بطريقتها التي خطفت قلبي وجعلتني أحبها وأشعر بأنها والدتي حقًا.

قمر تطرق الباب:

_ من على الباب؟
_ أنا قمر يا سيدتي.
_ تفضلي يا عزيزتي، لم أركِ منذ زمن، أنسيتِ والدتك؟ أم أن عندما يفترق الأحباء تنتهي كل العلاقات؟
_ آسفة يا سيدتي، لكنني خجلت من أن آتي إليكِ، شعرت أنني سأكون متبجحة جدًا، وأنا تلك الفتاة التي عاش بسببها مراد مشاعر اليأس والاكتئاب، وأنا من أحبها بصدق وتركته. أعلم أنني لا أستحقه، وأن إيفار هي من تستحقه.

_ لماذا تخجلين؟ أعرف أن كل هذا ليس بمحض إرادتك، وأنكِ كنتِ تعشقين مراد وتحبينه أكثر مما كان يحبك، وأن قرارات والدك وتحكمه هي من جعلكِ تتركين مراد. أعرف أن كلاكما عانى بشدة، لكن لا بأس، كل شيء على ما يرام على ما أظن.

_ أظن أنه على ما يرام، جئت لأطمئن عليكِ ولأطمئن على مراد.

_ أنا بخير يا صغيرتي، ومراد أيضًا بخير، لكن أخشى أن يعود البأس، فلا أثق أن تدوم علاقتهما سويًا.

_ لماذا تقولين هذا يا سيدتي؟

_ قمر، تعرفين أن مراد رأى مشقة كبيرة في الحياة، وإيفار فقدت والديها، وبالتالي تفتقد لحنانهما والشعور بهما، بالتأكيد تحتاج لأحد يملأ هذا الفراغ، وأخشى أن يكون مراد هو الأداة لملء ذلك الفراغ.

_ لا تخافي سيدتي، أظن أنهما يحبان بعضهما جدًا.

_ أتمنى ذلك يا صغيرتي، وأتمنى لكِ السعادة.

....

اليوم سأعود إلى مراد، حقًا لا أصدق، لم يتبقَّ الكثير على ما حلمت به. سأعود وسنتحدث سويًا، ثم سأفاتحه في أن نحدد ميعاد حفل زفافنا، لا أصدق!.. أين سأقيمه؟ ومتى؟ ومن أقوم بإرسال الدعاوى إليهم؟

أوه يا إلهي، أسئلة تملأ دماغي، لا أصدق حقًا!

لكن ما هذا؟ نفس الشعور الذي صار يتردد عليّ في الآونة الأخيرة، أشعر بأنني غير واعية، وأشعر بالصداع كثيرًا، ورأسي يؤلمني.

كفى، هذه مجرد ترهات. هيا، أنا في أحسن حال، سأعود الآن إلى الديار.

كنت في الحافلة التي ستوصلني إلى المنزل، أحببت أن أستقل حافلة من مكاني إلى المنزل مباشرة. وقتها استغليت الوقت في القراءة، ولكن لا أعرف ما الذي يشغل بالي، صراعٌ نفسي بين قلبي وعقلي، ولا أعلم، ماذا يدور بالداخل؟

لماذا أنا مشتتة بهذا القدر؟ ماذا بي اليوم؟ أشعر بالخزي، وأشعر بعدم الاستحقاق، وأشعر أنني لا أحب مراد... لماذا أفكر هكذا؟ هذه ترهات لا أكثر، ينتجها عقلي الباطن ليشتتني عن القراءة.

ولكن ماذا لو كان عقلي الباطن لا يكذب؟ وأنا لا أحبه فعلًا؟ سأكون سبب تعاسته، وأؤكد أنه سوف يدخل في نوبة اكتئاب حادة.
حتى لو لم أحبه، فلن أتركه، فبالرغم عني، سأبقى لأحميه من شر نفسه، ومن الاستياء مني، ومن الحياة، ومن المرور بحزنٍ جديد أشد من القديم، حيث لا يستطيع التأقلم عليه ولا تحمله، فمن كثرة العبء ستنفجر ضلوعه من داخل جسده، ويخرج قلبه المليء بالحب ناحيتي. لا أشكك

بنسبة واحدٍ بالمئة أن مراد لا يحبني، وهو صادقٌ بمشاعره، لكن لماذا أنا إذًا مشتتة؟

كفى يا فتاة، إنها مجرد أكاذيب يولدها دماغك.
هيا بنا، فقد أخذنا التفكير بالانغماس داخل العقل حتى نسينا أننا وصلنا.

****

(11)

اليوم ستعود إيفار للمنزل، لا أعرف هل أسعد أم أحزن؟ نوعًا ما وجدت وقتًا لأجلس فيه مع مراد في غياب إيفار، ليس بنيّة أخذ مراد من إيفار، لكني بالرغم عني اشتقت له وحننت إليه وشعرت بالارتياح أكثر عندما دخلت بين ذراعيه، بين ضلوعه حين أحسست بدفء أحضانه التي لطالما اشتقت لها. كان مراد لي بمثابة أبٍ لطفلته الصغيرة التي لطالما دللها واعتنى بها وأحبها، ومن حبه أخذت ابنته منه الحب فصارت بدونه تائهه. لا أشك أنني لا أجد نفسي ولا أريد البحث عنها في ظلال غياب مراد عني، فصرت أشعر بالبرودة في كامل جسدي وأشعر بالبرودة في صدري عند قلبي كأنها حفرة هاوية وفارغة، وكأن عندما يرحل مراد يأخذ قلبي معه لحين الموعد الذي يليه، ولكن هل من موعد سوف يليه من الأساس؟.. لا أعرف.

ولا أعرف أيضًا ما يخيفه عني القدر، أشعر وكأنها سخرية القدر مني وترتيب الأحداث الذي نغز قلبي، وكأن الإله يقول لي: جزاء فعلتك ضاع حب عمرك، لكن هو يسمى العدل ولن يفعل ذلك بشخص أحب بصدق. لا أفهم؟.. ولا أعلم؟.. ماذا يدور وماذا يحدث؟

بالداخل معارك وصراعات كلها تدور حول شخصٍ واحد وأنا أؤكد أنه ليس لي وليس من نصيبي، فترتيب الأحداث والقدر لا يقف في صفنا، يا سخرية القدر التي نالت منا... حقًا أهذا ما انتظرته؟ أحب شخصًا لا بل أعشقه فتزوج غيره بالرغم عني، ويدخل في نوبة اكتئاب وحزن من بعدي، ومن ثم تحل صديقتي مكاني.

بالفعل إنها سخرية القدر، ماذا يمكن أن يحصل أسوأ من هذا؟

والقدر لن يقف في صفي، لا أعرف من الأحَق منا به؟.. لكن بالتأكيد إيفار هي من احتوته وغيرت أسلوب حياته وجعلته أفضل بكثير مما كان عليه في عدم وجود كلينا في حياته، لا أعرف ولكن ما دمت أحبه سأتمنى له الخير والسعادة حتى لو كانت ستكون مع غيري.

حقًا عندما أتذكر كل ذلك أبدأ بالضحك، ليس من أي شيء في الموضوع بل أضحك على نفسي... نفسي التي لطالما تمنيت أن يطول عمرها حتى تموت داخل أحضان الرجل التي أحبته، فينتهي المطاف باختطاف قلبه بحب أخرى.

قطعت إيفار حبل أفكاري وهي تترك الباب.

_ حسنًا، أنا قادمة.

كانت مقبلة على بسعادة تغمر وجهها وابتسامة عريضة واحمرار وجنتيها، مثل عادتها كانت مقبلة على بإشراقتها والإطلال المميز بإيفار.

_ اشتقت لك جدًا يا قمر.
_ وأنا أيضًا يا إيفار حقًا... كيف كانت رحلتك؟ هل استعدتِ نشاطك وصرتِ أفضل؟

تغيرت ملامح وجهها من السعادة إلى الحزن غير الملحوظ، وكأنها تقول لم يتغير شيء وصار الحال أسوأ.

_ في خلال اليومين الماضيين كنت قد بدت عليّ أعراض التعب من غثيان، صداع، ألم في الرأس، عدم الاتزان.

أردت أن أطمئن، ذهبت لعيادة دكتور شهير في الأمراض الدماغية وقال إنه اشتباه في ورم في المخ، وفي طريق عودتي قال إن نتيجة التحليل الذي أجريته سوف تصدر غدًا حتى يطلع عليها دكتور يعمل في ألمانيا فهو أكثر منه خبرة.

لم أعلم أبدًا ماذا أفعل، وبينما كنت في وسط دوامة الحزن انتشلني الحزن أكثر، فالاخبار السيئة أقامت اتفاقًا أن تتهافت عليّ، فهم لا يجدون أتعب مني ليحزنوني أكثر. كنت حزينة جدًا، صديقة عمري لديها ورم في المخ، لم

أتمالك نفسي لكني أخفيت دموعي التي باتت أن تنهمر على وجنتاي وحاولت أن أطمئنها.

_ حبيبتي، لا تقلقي، ستكونين بخير وكل شيء سوف يكون على ما يرام، لا تقلقي سوف تصبحين في أحسن حال وتتزوجين أنتِ ومراد.

قلت تلك الجملة وصدري ملئ بالحزن، فهذا عكس رغبتي تمامًا، لا أقصد أنني أريدها حزينة وأن تبتعد عن من تحب، لكن أنني أحببته ومن الممكن أني أحببته أكثر منها، لا شك في ذلك، لا أحد أحب مراد أكثر مني.

_ قمر، أخاف على مراد فهو يحبني جدًا ويحبني بصدق، أخاف أنه يصيبه أي مكروه إن أصابني أي شيء أو مرضت.

وقتها أخذتها بين ذراعي وربطت على ظهرها وأنا أواسيها وهي تشكي همها وتحكي ما يحزنها في حين لا أجد من أحاوره... لا بأس حقًا سيكون كل شيء على ما يرام.
_ قمر حقًا أخاف جدًا، أنا أحبه وهو يحبني، أخاف أن يصيبني مكروه حتى لا يصبح حزينًا منطفأ.

أنا التي انطفأت منذ أن صرتما سويًا، ليس حقدًا لكن حقًا أخاف على كليكما، ليس من المهم حزني الآن المهم أن تصبحا على ما يرام.

_ عزيزتي لا تخافي، كل شيء سيكون على ما يرام، وسوف تتزوجان وسأحضر حفل الزفاف وسوف تنجبان أطفالًا لتكون ذريتكما صالحة في المجتمع، لا تخافي سيكون كل شيء على ما يرام.

_ حقًا يا قمر هذا يعني أنني سأكون بخير وسنتزوج أنا ومراد وسنعيش حياة سعيدة؟

_ نعم يا حبيبتي.

_ شكرًا يا قمر جدًا لأنكِ طمأنّتني وشكرًا لوجودك في حياتي، لا أعرف حقًا إن لم تكوني موجودة ماذا كنت لأفعل.

_ أنا دائمًا موجودة، اذهبي واخلدي إلى النوم الآن وارتاحي فأنتِ تحتاجين إلى الراحة.

_ حسنًا يا صديقتي المقربة.

ذهبت وخلدت إلى النوم وتركتني لأفكاري اللعينة، بحق ماذا أفعل الآن؟ كل شيء يتدهور... سوف أنام لن أتحمل أكثر من هذا، سوف ينفجر عقلي.

****

(12)

في إحدى المستشفيات الراقية في ألمانيا، بداخل مكتب الدكتور إسلام أحمد.

الهاتف يرن.

_ألو يا دكتور، كيف حالك اليوم؟
_بأحسن حال، دكتور إسلام، كنت أريد فقط أن أسألك عن شيئًا ما.
_تفضل، ما الذي تريد أن تسأل عنه؟
_كنت أريد معرفة نتيجة تحاليل الحالة التي أرسلت تحاليلها إليك الليلة الماضية.
_تقصد الحالة التي قمت بتشخيصها بأنها لديها اشتباه في ورم في المخ؟
_أجل، ما نتيجة تلك التحاليل؟

دكتور إسلام بحزن:

_للأسف دكتور أيمن، نتيجة التحاليل ليست اشتباهًا، هي بالفعل لديها ورم في المخ وفي مرحلة متأخرة، وإن لم تستجب للعلاجات، حتمًا ستُجرى عملية في أسرع وقت، وهذا النوع من العمليات ليس شائعًا في مصر، فهي عملية صعبة وتحتاج إلى أطباء مهرة في مجال الأمراض الدماغية.

_وما الحل الآن، دكتور إسلام؟
_يمكنك أن تعلمها بنتيجة التحاليل، وإخبارها بأنها تحتاج إلى السفر إلى ألمانيا لكي تتم علاجها وتُجري العملية، ولا تقلق، سأكون أنا الطبيب المرافق لها والمشرف عليها.
_شكرًا جزيلًا لك، دكتور إسلام، حسنًا سأعلمها في أسرع وقت وستأتي إلى المشفى عندك، وقم أنت باتخاذ الإجراء المناسب.
_على الرحب، سُررت بمكالمتك جدًا، وداعًا.

أغلقت الهاتف وقتها، وامتلأ عقلي بالأفكار، حقًا إنهم أناس طيبون، لماذا يُصابون بمثل تلك الأمراض؟

ليس اعتراضًا على رغبة الله، لكن... لا أعلم بماذا أفكر؟ بالمناسبة، أنا دكتور إسلام أحمد، من أب مصري وأم ألمانية. أنا ورثت حب الطب عن أبي -رحمه الله- وتعلمت وتخرجت في جامعة (**Ludwig Maximilian University of Munich – LMU**).

وكانت تلك الجامعة من أكبر أحلامي والتي حققتها بالفعل. أنا رجل في الثلاثينات من عمري، ولم أتزوج، ليس لأسباب خاصة بتاتًا، فالسبب هو أنني لم أجد من تناسبني فقط لا غير. أشعر أن فتيات هذا الجيل لن يقدِرن على تحمّل المسؤولية، وأيضًا لأنني أريد أن أتزوج فتاة أكون أحببتها، لا

مجرد زواج لمجرد أنها قد أعجبتني من حيث الشكل أو ما شابه، أو أنه مجرد اختيار أمي لي (جواز صالونات) بمعنى أصح. أحب استخدام تلك المصطلحات المصرية جدًا، أحب مصر على وجه العموم، وكنت أريد أن أتعلم هناك وأن أعيش فيها لأنها طبعًا مسقط رأس أبي، لكن أمي رفضت وأرادت أن نعيش في ألمانيا وأكمل تعليمي بحجة أن التعليم في مصر لا يُقارن بجودة التعليم في ألمانيا، لكن حمدًا لله على كل حال.

وأنا لست مجرد طبيب في تلك المشفى، فأنا أيضًا من يديرها. أردت أن أفتحها واهتممت فيها بكل التخصصات الطبية.

أردت أن ينعم الناس بصحة جيدة، وأقلل من الوفيات. أعلم أن تلك مجرد أقدار، ونحن مجرد أسباب، لكننا نحاول.

حقًا لا أعرف ما يدور ببالي، لماذا أنا متوتر من تلك الحالة الجديدة مع أنني لم أتوتّر من قبل تجاه أي حالة؟ كنت أفعل ما ينبغي فعله على أكمل وجه، لكن هل من الممكن أن يكون القدر يُخفي لي شيئًا في جعبته، وخصوصًا أنها فتاة مصرية؟ حقًا، ستكون قصة حب عظيمة.

أوه... يا لتلك الترهات، فأنا حقًا عاشق لقصص الحب التي تأتي من صدف يبدو أنها من المستحيل أن تحدث. مهووس أنا بها، وأعشق قراءة تلك

الروايات أيضًا، مثل رواية (ما لا نبوح به)، الأغلبية لم تُحبها، لكنني أرى أن الطابع الرومانسي لا يأخذ حقه، ويقول عليه الناس "تلزيق"، ولكنها مشاعر لن يشعر بها إلا من ذاقها.

ماذا أقول أنا الآن؟ حتى أنا لم أذقها يا رجل، سأُكمل عملي بدلًا من أن أجن.

****

(13)

كنت جالسة في غرفتي كالعادة بعد أن عدت من السفر، وأشعر بأنني ليس مكتوبًا لي أن أستريح في تلك الأيام الصعبة.

كانت قمر نائمة في غرفتها، أشعر بأنها حزينة جدًا ومنطفئة، لا أعرف السبب حقًا، لكن أتمنى أن يزول البأس عنها. ولكن، في حين تصفحي للهاتف، وصلتني رسالة من الدكتور الذي أجريت عنده التحاليل الطبية، واكتشفت أنني حقًا مصابة بورم في المخ، وليس مجرد اشتباه بذلك المرض اللعين، ولكن ما باليد حيلة، وأيضًا في مرحلة متأخرة. يا لسخرية القدر! تأتي المصائب في أوقات نخصصها فقط للفرح، وليس أكثر من ذلك. لا نريد سوى ذكرى جميلة تُخلد في سجل ذكرياتنا، ولا نريد سوى بعض الفرح، وليس أكثر. الحياة صعبة، وجميعنا نعلم ذلك... لكن لماذا تأتي سخرية القدر في تلك الأحيان؟ حقًا لا أفهم... ولا أعلم.

لم أشعر حتى بنفسي ودموعي تنهمر على وجنتيّ، وأبكي ودموعي ساخنة على وجنتيّ، وكأنها تنزف بالنيران التي تشتعل في قلبي... قلبي الذي لم أعلم ماذا حدث به منذ أن تلقى الخبر، وهو يؤلمني وكأنه تحطم، وما يؤلمني هو

حطام قلبي. لم أعلم ماذا أفعل، هرولت إلى غرفة قمر وأنا أبكي، وجدتها مستيقظة، وأخذتني في حضنها.

_إيفار، ماذا بكِ؟ ما الذي أصابكِ؟

_قمر، لن أعيش... أنا متعبة جدًا، لا أعلم ماذا يحدث، ولا أعلم لماذا يحدث هذا في تلك الأوقات التي نكرّسها للفرحة وتخليد الذكريات. تأتي الظروف، وتأتي سخرية القدر، ولا يقف القدر في صفي، وأُصاب بذلك المرض اللعين.

_ماذا بكِ يا حبيبتي؟ ماذا أصابكِ؟

_أنا مصابة بورم في المخ، يا قمر، وفي مرحلة متأخرة من المرض، ويجب إجراء عملية، ونسبة نجاحها صعبة.

_ماذا تقولين؟ هل تمزحين؟ لا، أرجوكِ، لا أحب هذا المزاح السخيف، إيفار، هذا ليس صحيحًا، أليس كذلك؟

_لماذا سأكذب في المرض والألم، يا قمر؟ أنا بالفعل متعبة جدًا.

قمر وهي تبكي ولا تستطيع تمالك نفسها:

_حبيبتي، انظري، لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام، لا تقلقي وستصبحين في أحسن حال، وأظن أن تلك العمليات تتطلب السفر لخارج

مصر. انظري، أنتِ ستكونين بخير، لا تقلقي، وأنا بجانبك، ولن أخبر مراد، سأخبره بأنه حدث أي ظرف أو أنكِ حصلتِ على عملٍ ما أو أي شيء. لن أخبره، وستتمين علاجك، وستصبحين بخير، لا تقلقي.

_حقًا يا قمر؟

_حقًا يا حبيبتي، لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام.

نوعًا ما، قامت قمر بالتخفيف عني ومسح دموعي. أشعر بأنها تحل محل أمي في أشياء كثيرة، وتحبني وتخاف عليّ، ولا تحب أن تراني حزينة. ولكن هذا لن يُخفي حزني وخيبة أملي، وعدم اطمئناني، وشعوري بالتعب أيضًا. حقًا، خائفة جدًا، ومن ضمن أسباب خوفي هو الخوف على نفسية مراد، أخاف أن يعلم ما أصابني، أن يصيبه مكروه. أردت أن أتم حياتي معه، ولكن لا أرى سوى أن الظروف تتراكم ضدنا، وكلما تقدمنا خطوة، أخذت بها الحياة أمامنا ألف خطوة. لا أعلم، أو ربما القدر ليس في صفنا، أو ربما تلك سخرية القدر، أو ربما لسنا من نصيب بعضنا من الأساس، ولكن أرجّح كل الاحتمالات ما عدا ذلك الاحتمال... لن أفارق مراد أبدًا، مهما حدث، وسأتم علاجي وسأعود إليه، وأتمنى أن يقف القدر في صفنا هذه المرة، لأني مللت جدًا من الظروف التي يواجهها كل الناس في الحياة، ليست بالهينة أبدًا، فهي صعبة بصدق... صعبة بحق.

وكما سمعت كثيرًا:

متى تُنصفيني أيتها الأحلام؟
متى تعودين بي إلى الحياة مرة أخرى؟

****

(14)

الساعة 12:50 صباحًا.

من المفترض أن أنام الآن، لكن هلكت من التفكير، لا أعلم لماذا كل ذلك التفكير اللعين. أظن أن الأمر ليس كما أتوقع، وليس كما أفكر. من المفترض أن الليلة الماضية ميعاد عودة إيفار من سفرها، ولكن لا أعلم، عادت أم لا؟ ولكن بالتأكيد أنها عادت، لكن لماذا لم تخبرني؟ لم أحب أن أزعجها وأتصل بها، قلت في داخلي: بالتأكيد هي منشغلة ولديها المشاغل.

فكرت في فكرة، بدلًا من كوني جالسًا لا أفعل شيئًا، أحببت أن أقرأ مذكراتي التي لطالما شهدت على ألمي ومعاناتي وأحزاني الشديدة، ولكن اليوم تشهد على سعادتي وفرحتي وانبهاري العظيم بمن فتنتني وأحبتني. أحبتني مثل حب أمي لي، حب غير مشروط، وأحببتها مثلما أحببت كل مكان ذهبت فيه مع والدي. ذهب والدي، وذهبت الذكريات، وذهب حبه من قلبي، لكن لم تذهب ذكريات تلك الأماكن من بالي أبدًا، ولم يذهب عشق تلك الأماكن من قلبي. فلا عشق بعد عشق وطني، ولكنها الآن عشيقتي ومحبوبتي وحبيبتي وكل ما لي وكل ما أملك.

فتحت مذكراتي وبدأت بأول صفحة:

يوم 24 من مارس 2018

(صرت مجرد نطفة في وسط حقلٍ من الذرة، لا أحد يشعر بي، ولا أحد يكترث لوجودي، ولا أحد يشعر بوجودي من الأساس، أو ربما أنا مجرد نبتة تسكن قاع المحيط، وكل من يمر عليها يأخذ منها قضمة ويتجه لغيري. شبّهت نفسي بفأر التجارب، بالحق كانت تجربة واحدة، ولكني ما زلت أتمنى دوامها وبقاءها، حتى لو زال حبها. لكن لماذا تتركُني هكذا؟ أعلم أنه ليس الأمر بمحض إرادتها، لكن لماذا لم تحاول مثلما حاولت أنا؟ لم أكن أفعل شيئًا سوى المحاولة. والآن، من كثرة الكتمان وعدم وجود من يكترث لأمري ولأمر سماعي، أوجه الكلام لمسامعي على ورقات مذكراتي، أكتبها بقلمي على ورقتي، التي لو رآها المؤرخون لخلدوها ذكرى في التاريخ، فهي تحمل دموع عاشقٍ أعطى ولم يأخذ، أحب ولم يُحب، ولم يخذل، ولكن خُذل.

لماذا؟ هذه هي الحياة؟ لماذا هي بهذه القذارة؟ لماذا من يعيشها يدركها في البداية جميلة ولطيفة، وستعطيه ما أراد؟ ولكن في النهاية يكتشف عكس ذلك، يكتشف أنه وُلِد بين مشكلات وإرهاق وتعب نفسي وألم يكسر أحشاء القلب، ودموع تنزف على الوجوه فتحرقها من كثرة ما هي

ساخنة، دموع خرجت من القلب مباشرة، ذاهبة إلى العالم الخارجي، تطل على قذارة تلك البشر اللعينة. لماذا يا حبيبتي فعلتِ ذلك؟ ولكن تعرفين، لو عدتِ، سأُسامحكِ وأنسى الماضي وأنسى كل شيء، وسأحبكِ من جديد، فأنتِ أول حظي في تلك الدنيا، أول حبٍ سكن قلبي، أول إحساس بالأمن والدفء مع شخصٍ بعد أمي. ملأتِ حياتي بهجة وسعادة، والآن مجرد ذكرى تُخلّد الألم والخذلان. ولكن، تعلمين؟ ما زلت أختلق لكِ العذر، وأقول: هي لن تسبب لي أي أذى في حياتها. وما زلت أختلق العذر، مثلما كنت أفعل عندما نكون متشاجرين أو ما شابه، ولكن لا تقلقي يا حبيبتي، سأظل أدعو لكِ في صلواتي، فالحبيب لا ينسى حبيبه أو حبه، مهما طالت السنين، ولن يكرهه ولن يحقد أبدًا، وسأبقى على العهد، سأظل أحبكِ، أنا المتيم بكِ، وزدت حبًا وشوقًا من بعد الخذلان، ولن أسمح لأي امرأة أن تخترق جدران قلبي بعدكِ)

أظن أنني خلفت وعدي معها، ولكن ما باليد حيلة، لم أستطع إقفال جدران قلبي مثلما قلت.

عندما أتذكر ذلك التاريخ، أبكي. فالبكاء وسيلتي الوحيدة للتغلب على حزني، الذي صار جزءًا لا يتجزأ مني. ولكن الآن، إيفار موجودة، لن أحتاج وجود أحدٍ بجواري، والآن، كل أحلامي صارت تتوقف على زواجي

وبنائي لأسرة جميلة، وأحفاد لأمي، وأنا على ثقة تامة أنها ستكون حياة سعيدة ومليئة بالفرحة والبهجة.
أنا متأكدٌ من ذلك.

****

(15)

كان من المفترض أن تعود إيفار ليلة البارحة، أو بالأحرى أن تتصل بي تخبرني هل عادي أم لا، لكن لا أعلم ما الذي يدور بالضبط في عقل كلانا أبدًا، شعور لا أستطيع وصفه بتاتًا، صعب جدًا لا أستطيع وصفه، لكن لماذا؟

هل من المفترض من الأساس أن لا أكون مدركًا الإجابة؟.. أم هذا سيرًا للأحداث التي رتبها القدر؟.. ولا ندرك إلى أين سوف يرمي بنا القدر من أقدار حميدة أو أقدار بغيضة تبغضنا وتجعلنا كارهين أنفسنا والحياة في آنٍ واحد، حتى أنني لا أدرك لماذا أتحدث بتلك اللهجة؟

هل من المفترض أن لا أراها أم أن الأحداث تأتي عند بوابة الأقدار وتنصاع لما يمليه القدر، ونحن لا ندرك تلك الأقدار والتي بالأحرى تنتهي بسخرية من القدر.

ظهر ضوء أبيض خرجت منه إيفار مبتسمة، ولكن لم أشعر أن تلك الابتسامة نابعة من قلبها لي، فهي لأحدٍ ثانٍ لا أعرفه ولا أريد معرفته بتاتًا.

وظهر من العدم رجل، لم أتدارك كنيته أو هويته لكنني اختنقت عندما رأيته، وكأن شيئًا من العدم أتى وأمسك برقبتي ورفع بي عاليًا مستندًا على الحائط ويحكم قبضته أكثر على رقبتي، لم أتدارك أفعالي إلا عندما وجدت نفسي هممت بالصراخ واتجهت نحوه ولكن ظهر من العدم جدارًا مخفيًا أمام الهالة البيضاء وكأنها تمنعني من الاقتراب، وأنا أراهما أمامي ممسكان بيد بعضهما البعض وراحلان بعيدًا عني، هممت بالبكاء بالرغم عني ولم أتدارك أفعالي تلك إلا عندما استيقظت من نومي في قمة فزعي وأنا أصرخ صرخة هزت مسامع أمي.

_ماذا بك يا مراد؟

_لا شيء يا أمي، لكنني رأيت كابوسًا بشعًا.

_احكي لي بما رأيت.

_لا تشغلي بالكِ، هل عادت إيفار أو ألقت أي اتصال علي؟

_لا يا عزيزي، ولكن هناك من يريد مقابلتك والبوح لك بشيئًا ما، هل تأذن له بالدخول؟

_من ذلك الشخص من الأساس لكي أسمح له بالدخول!!؟

_إنها قمر يا عزيزي، تريد إخبارك بشيء ما يخص إيفار.

قالت أمي تلك الجملة وهي راميه بعينيها أرضًا وتظهر على معالم وجهها علامات اليأس، فأذنت لأمي أن تجعل قمر تدخل الغرفة دون أن أسألها على سبب عبوس وجهها وملامح الحزن تلك.

_حسنًا يا أمي، ائذني لها بالدخول لي.
_حسنًا بُني.

دخلت قمر إلى الغرفة هي الأخرى ترمي بأنظارها أرضًا، ويظهر على معالم وجهها هي الأخرى ملامح الحزن واليأس وشيئًا فاق حزن أمي ولا أدرك الأسباب تلك التي أنا غائبًا عنها وأظن أنني سأكون آخر من يعلم بحق.

_في ماذا تريدين أن تحادثيني يا قمر، هل هناك شيئًا طارئ تريدين إخباري به؟
_في الحقيقة، أردت إخبارك بأن إيفار عادت من يومين، ولكنها لم ترد إخبارك بخبر عودتها إلى المنزل.
_ولماذا لم تخبرني بذلك وأنا من المفترض أن أكون أول من يعرف؟
_لأنها وفي الحقيقة، إيفار مريضة منذ فترة، ظهرت عليها أعراض التعب ولكن كانت تتمالك نفسها وتثبت هيئتها أمامك كي لا تقلق حيالها، ولكن قبل أن تسافر في رحلتها القصيرة ظهرت عليها أعراض التعب أكثر، ومنذ عودتها أخبرتني بأنها أجرت تحاليل، وفي ليلة البارحة أخبرتني

بالنتيجة، ولم تكن مبشرة بتاتًا، فقد أكد الطبيب المختص في مرضها أنها مصابة بورم في المخ وفي مرحلة متأخرة وتحتاج إلى السفر إلى الخارج، ولكنها لم ترد أن أخبرك بذلك، كانت تريدني أن أتحجج لك بأي حجة كي لا تقلق عليها، لكنك عاجلًا أم آجلًا كنت ستعرف، وأيضًا أردت إعلامك كي لا تكون غائبًا عن الواقع الذي تمر به.

لم أكن أبدي أية ردود أفعال، والكلام يُلقى على مسامعي كالصاعقة من السماء، ارتدت مباشرة من سمائها إلى أرضها وارتطمت داخل قلبي، تاركة فيه شروخًا، ظننت أن الحياة قد أعطتني بعضًا من جمالها وأزهقت عني عذابها وتعبها، ولكن في الحقيقة أرادت أن تؤهلني فقط لتلك الصدمة التي لم أتمالك نفسي فيها إلا ووجدت قمر آخذة بي بين ذراعيها وتمسح بكفيها دموعي التي كانت تنهال مثل الأمطار الغزيرة في غسق السماء، وكانت حارقة أيضًا، حاول قلبي التخفيف من حرقته فأخرج دموعه حارقة تكوي جلدي وتكويني، منذ أن أُلقي ذلك الكلام على مسامعي، فلم أتدارك نفسي إلا وأنا أخرج من بين أذرع قمر وأقول لها:

_خذيني لها، أريد التحدث معها، أريد أن أكون بجانبها، كفى كونها بعيدة عني، أريد فقط رؤيتها.
_لكن..

_أرجوكِ يا قمر، خذيني فقط إليها.. كنتِ دائمًا موافقة على طلباتي، لن يهتز الكوكب لو نفذتِ لي ذلك الطلب، أرجوكِ.

_حسنًا، هيا تعال معي.

....

هممنا بالرحيل وأخذتها في سيارتي، وأقود وأنا غير مدرك في أي طريق أمشي وأي طريق أسلك، لكن تداركت نفسي لكي أصل فقط لوجهتي ولا أُعرض حياة من معي لخطرٍ كبير، هل من الممكن أن يحدث شيئًا ما لها؟

_آسفة جدًا لك.

_على ماذا تبدين الأسف؟

_أنني أخبرتك بمثل ذلك الخبر وجعلتك تحزن.

_وهل ما زلتِ تخافين على مشاعري مثل السابق يا قمر؟

_بالتأكيد يا مراد، فأنا أحب.. أقصد فأنت كنت وما زلت دائمًا شخصًا عزيزًا علي.

كنت أعرف ما يدور في خاطرها، ما زالت تحبني لكن قلبي ملكته غيرها.

_هيا لقد وصلنا.

_حسنًا، سأدخل أنا أولًا وادخل أنت ورائي.

طرقت باب المنزل ودخلت، من ثم تبعتها ودخلت المنزل، لم أكن على قدرٍ كافٍ من التحكم أن أقف أمامها شامخًا مثل السابق، ولكن لم أتمالك نفسي ووجدت عيوني تنزف منها بعض الدموع، وهمّت عيوني بزرف الدموع، حتى وجدت إيفار ترتمي في أحضاني باكية كالطفلة، وهي تشتد يدها إحكامًا حول خصري ولا تريد تركي وتبكي، أردت أن أطمئنها قليلًا، فلففت يدي حولها وأجلستها على الأريكة وهي في أحضاني.

_كيف حالكِ يا عزيزتي، كيف حال ابنتي الصغيرة؟

_لست بخير أبدًا يا مراد.

_لماذا تقولين هذا؟ هل من الممكن أن يقوى عليكِ المرض؟ ثم إنكِ دُمتِ وما زلتِ قوية وستبقين هكذا، ومن كان قويًا ويهزمه المرض؟

_لكن الدكتور قال إن مرضي في مرحلة متأخرة وأحتاج للسفر لألمانيا، لأن مرضي يحتاج رعاية شخصية من طبيب متخصص في ذلك المرض.

_حبيبتي لا عليكِ، سيكون كل شيء على ما يرام، وسآتي معكِ، وسيكون كل شيء بأحسن حال.

_لا.. أريد منك أن تبقى هنا، ولكن لو جرى لي مكروه تعالَ أنت وادفن جثتي.

_حبيبتي، لا تقولي كلام مثل هذا، ستمتثلين للشفاء، وسيكون كل شيء على ما يرام، ولا تخافي، سأسمع كلامكِ وسأبقى هنا.

_هل ستنساني يا مراد؟
_لماذا تقولين مثل هذا الكلام يا حبيبتي؟ لا تقلقي، أنا أحبكِ أنتِ، لا تقلقي.

طال الحديث من بيننا، وفي منتصفه همّت قمر بالدخول لغرفتها وصوتها ملئ بالحزن، وعيناها تلمعان بالدموع، أعرف أن جزءًا من ذلك الحزن بسبب إيفار والجزء الآخر بسببي.

_حبيبتي سأرحل الآن وسأعود لكِ في ميعاد سفركِ، بالمناسبة متى تسافرين؟
_بعد يومين، وستقلع الطائرة الساعة الثامنة صباحًا.
_حسنًا حبيبتي، سأكون هنا لأقلكِ وأودعكِ، ولكن ليس الوداع الأخير، فسوف ألقاكِ يوم تتماثلين للشفاء، يوم زفافنا.
_أتمنى ذلك حقًا، سأنتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر.
_قريبة بإذن الله.

هممت بالرحيل، واكتفى قلبي مما قد أُلقي بداخله من صواعق قد تهلكه، لكنه تمالك نفسه، ركبت سيارتي ورحلت وأنا مُعبّأ بشيئًا من الخوف والقلق في نفس الوقت، لا يهم.. المهم أن تكون إيفار بخير.

(16)

يوم الثلاثاء، الساعة 6:30 صباحًا.

مراد يطرق باب المنزل.

وجدته يدخل عليّ يومها وعلى وجهه ابتسامة لا تعبّر أبدًا عما بداخله، ولكنها ابتسامة حاول بها مواساة من عكّرت صفو ما بداخله.

_صباح الخير يا عزيزتي، هل مستعدة للسفر؟

قلتها وأنا أرتعب من هول ما أنا مقبلة عليه، فأنا الآن وبمجرد رحيلي بدأت رحلة لا أعرف ما هي نهايتها؟ وهل سترضيني تلك النهاية من الأساس؟

لا أعلم، لكن بداخلي مشاعر كثيرة يصعب وصفها، فهي تُحس فقط لا غير، وأنا واثقة أن مراد يعلم تلك المشاعر ويشعر بما يسكنني. على قدر تشجيعه لي وقوله بأني قوية.. لكنني هشّة جدًّا بحق، لا أظن أن رحلتي ستكتمل بسعادتي.. ولكن لا يهم سعادتي، المهم سعادة مراد.

_بالطبع يا عزيزي أنا على أتم الاستعداد.
_حسنًا هيا بنا الآن إن لم تكنِ تريدين فعل شيء قبل رحيلنا.
_لا لا.. هيا بنا لنرحل، كي لا نتأخر عن ميعاد الطائرة.
_حسنًا هيا بنا.

ركبنا السيارة ورحلنا، وكلٌّ منا مُعبَّأ بمشاعر الخزي والضعف والألم والحزن، وأظن أن أكثرنا مراد. لم أرد أن أوقظ قمر، فهي نائمة الآن، ولكن مراد سيطمئنها عليّ بالتأكيد.. لم أتخيّل مثل ذلك الشيء أن يصيبني يومًا، يا لسخرية القدر التي باتت تلاحقني أينما ذهبت وأينما خطوت، وكأنما كُتِب عليّ ألّا أعيش لحظة في سعادة. ولا أعلم مصيري، وربما أعود سالمة أو أعود وأنا مجرد جثة هامدة لا نطق لها ولا نفس يخرج من أنفها وفمها. لا أستطيع وصف ما أصابني، ليس من ألم المرض، لا، بل ألمي الشخصي وأوجاعي وما سكن قلبي قبل عقلي. فلم يعد عقلي يفكر، وصار قلبي ينبض بشدة إلى ما لا نهاية، لقوة ضرباته وكثرتها، وكأنه يحاول الخروج من صدري والانتقال لصدر شخص لا يؤذيه ولا يتعبه. أظن أنني أرهقت قلبي معي كثيرًا، أتعبته وأهلكته بما فيه الكفاية. ولكني ما زلت طامعة في الحياة، ولكني أقسم أني لست طامعة فيها حبًّا فيها أو لأني لست زاهدة في الدنيا.. لكنني أريد فقط البقاء على قيد الحياة، وهو بجانبي وعيناه تلمعان بدموع خشي من انزرافها كي لا تزيد من تعب قلبي، يكتمها بحرارتها

داخله ويتحمّل عبءها ويتحمّل صراعًا ناشبًا بين قلبه وجميع أعضاء جسمه. كادت مقلتاه أن تنفجرا من كثرة ما يسكنها من الدموع. أتمنى ألا يصيبني مكروه، لأجله فقط، وليس لأجلي.

_هل أنتِ على ما يرام؟

_بالطبع يا حبيبي، وأنتَ كيف حالك الآن؟ أتشعر بأي ألم يصدر من دماغك؟

_لا، بل أشعر بألم صادر من قلبي، من داخل أجوافي وأحشائي، وأشعر بأن قلبي يصرخ ألمًا مما يسكنه من ألم، ويتكسر وتتمزق أحشائي لفراقك.

_أرجوكِ لا تقولي مثل ذلك الكلام، أقدّر كل ذلك الكلام وأفهم شعورك وهول الموقف، ولكن الله قادر على شفائك، فهذا ما هو إلا مجرد اختبار بسيط لابنتي الصغيرة، ولا تكرّري مثل هذا الكلام مرة أخرى، وتحمّلي قليلًا، أم أنكِ تريدين تركي للأبد؟

ورغمًا عنه، انطلقت عيناه مخرجة كل ما يسكنها من الدموع. بكينا سويًّا، ولكني مسحت عيني، ووضعت يدي على عينيه أمسح تلك الدموع الساخنة، وأنا واضعة رأسي على كتفه أحاول ممازحته كي نخرج كلانا من ذلك الوضع الشنيع والحزين.

.....

الساعة 2:00 ظهرًا في مستشفى الدكتور إسلام أحمد.

من المفترض أن تصل الحالة التي وُكّلت بالإشراف عليها اليوم، لا أعرف ما الذي يجعلني منشغلًا جدًا بتلك الفتاة، حتى دون لقائها أو حتى معرفة اسمها.

أوه.. يا لي من أحمق، تفوح رائحة حماقتي من داخل ملابسي. بالطبع لن تكون هذه هي قصة الحب التي أتمناها، فالقدر لا يُحالف أبدًا من ينتظر منه أن يُبهره. أظن أنني مطمئن هذه المرة، ولماذا هذه المرة بالتحديد؟

مثل كل مرة، وكل حالة تمر عليّ.. وهناك العديد من الحالات التي مرت بي من مصر، وكان عقلي مشوشًا نوعًا ما بتلك الترهات العقيمة التي لا تُقدّم ولا تؤخّر، وأعطي أملًا في القدر فيُنهيه بخيبة أمل ينحني لها الملوك خافضين رؤوسهم، خالعين قبعاتهم.. ما الذي أقوله؟ إنها ترهات بحق.

عدت إلى المنزل في ذلك اليوم مبكرًا عندما علمت أن الحالة ستأتي في اليوم التالي.. لا أعلم لماذا رحلت عندما علمت بهذا الخبر!!.. لكنني لم أحب أن أُكمل عملي اليوم في المشفى، وأردت أخذ قسطٍ من الراحة وأنا أتبادل أطراف الحديث مع والدتي، فأنا مقصّر معها تلك الفترة بحق، ويجب أن أعطيها بعضًا من وقتي.

وصلت إلى المنزل، وفتحت بمفتاحي، فوجدت أمي ترحب بي أفضل ترحاب، وكانت تتحدث العربية بطريقة توحي بصعوبة فهم ما يُقال فقط. أمي تعلّمت العربية خصيصًا لأنها تعلم أنني لا أحب الحديث بالألمانية، وأتحدث بها فقط في دوامي.

_مرحبًا ابني.

_مرحبًا أمي.. ألاحظ أنكِ تحدثينني بالعربية.

_بالطبع، لأنك تحب التحدث بها ولا تحب الألمانية.

_أوه يا أمي، كانت تلك الأيام مُرهقة بحق. العمل مُرهق جدًا يا أمي هذه الفترة، فرحلت مبكرًا اليوم وجئت لأجلس معكِ قليلًا.

_حسنًا، اجلس يا بُني لنتحدث قليلًا، أريد محادثتك في بعض الأمور.

_تفضّلي يا أمي، أنا مُنصت لكِ.

_عزيزي، ألا تُريد الزواج حتى الآن؟ لقد أوشكت على عامك الثلاثين وما زلت عازبًا! ألم يحن بعد وقت أن تأخذ تلك الخطوة وتستقر؟ أريد أن أحمل أولادك قبل أن أموت.

_يبدو أنكِ شاهدتِ فيلمًا عربيًا أبيض وأسود الليلة الماضية، يا أمي، وتريدين تقييم أدائك.. بحق، يا أمي، كيف أتزوّج ولم أجد من تُناسبني بعد؟ لا تقلقي، ستحملين أولادي في الوقت المناسب يا أمي، ولكن عندما أجد من تُناسبني. تصبحين على خير يا أمي.

ودخلت إلى غرفتي كي لا نُكمل تلك المحاضرة عن تكوين أسرة مناسبة بأقل المجهودات، وحتى وإن أحبّها وتحبني. أمي تطبّعت جدًا بطباع الأمهات المصريات العتيقة، وهذا شيء أحبه، وفي نفس الوقت يُثير ريبةً في داخلي. أخاف أن يأتي يوم وتقول لي: إن لم تتزوّج، لا أنت ابني ولا أعرفك!.. يا لهذي هلاوس ما قبل النوم. لنخلد إلى النوم، فلدينا يوم مشوّق غدًا.

****

(17)

يوم الأربعاء، الساعة 3:00 عصرًا.

من المفترض أن تصل الحالة في خلال ساعتين من الآن، لا أعلم بحق ما الذي يشجعني أن أشغل بالي بها كثيرًا حتى دون أن أراها أو أعرف حتى اسمها، ولكن هل لنا بفاصل عن العالم كي أتحدث فيه مع نفسي.. لا أريد من أحد أن يفهمني بطريقة خاطئة أو ينسب إلي أمراضًا لن تطأ قدمها عتبتي من الأساس، ولكن كل ما في الموضوع أن كلما زاد علمك زاد همك وتبدأ ترتفع كل مؤشرات السلبيات ويقل شيء واحد، عدد من يفهمونك فتبقى أنت وحيد، أنت ونفسك، ولن يفهمك أحد أكثر من نفسك، فهي نفسك، وليس بما أقوله أنني مصاب بالجنون لا بتاتًا، فأنا من من يرجحون كون المرء يحدث نفسه يدل على عقلانيته، ولكن لماذا؟

هناك أناس أحبوا مشاركة ما يجول بداخلهم بغض النظر عن محتوى ما يشغلوا بالهم ولكن في نهاية المطاف هناك من ندم على أنه حاول من الأساس أن يفرغ ما في وعائه لوعاء غيره ظنًا منه أنه على قدر كافٍ ودراية بما يجول في أفكاره وسوف يفهمه، ولكن على الأغلب تزداد تعاسة الطرف الذي حكى من الأساس، لأن مع الوقت سيبدأ الطرف الآخر بالتقليل من

حجم مشكلاته بدافع أنه لم يجرب الإحساس ولم يمر به، فأنا أرى بمعتقدي الشخصي أن كل من لم يمر بتجربتك الشخصية لا يحق له أن يواسيك ما دام لم ولن يفهمك، مستحيل أن تحدث، فالتجارب متعددة وعديدة وكثيرة، وليس هناك أكثر من عصارة الأمراض النفسية التي تنتج من تلك التجارب، فالمشفى عندي قسم الطب النفسي صار لا يتحمل أكثر، إنه يتحمل فوق طاقته الآن، وأيضًا كوني طبيبًا وصاحب المستشفى أنني دائمًا أرجح أساليب الأطباء النفسيين في علاج مرضاهم، بمعنى أحرى، أرى الطبيب النفسي مثل الشخص الذي يتلقى الكلام من صاحب التجربة وواجبه المواساة، ما الفرق بينهم غير أن الطبيب يعطي المريض بعض الأدوية المخدرة، وليس المهدئة، فالطب تحامى في مصطلح مهدئة، ولكن بغض النظر عن ذلك لا ننكر دخول بعض المواد المخدرة في تركيب تلك الأدوية والعقاقير، وهذا ما يجعل المريض في حالة يُرثى لها، وأغلب الوقت يريد النوم، فالطبيب يوفر عليه مشقة طويلة وتكبد عناء محاولة النوم هربًا من مشاكله، فيعطيه دواءه المخدر ليسهل عملية النوم، فيعطي نفس التأثير ولا يتغير شيء، وهذا لا يعني أنني لا أحب الأطباء النفسيين وأنهم ليسوا مهمين، أبدًا.

فأغلب الحالات تتماثل للشفاء كونها تريد أن تتماثل للشفاء، فالقرار الأول والأخير يكمن عند المريض وليس عند الطبيب، بمعنى أحرى الطبيب ليس إلا مكلفًا بمهمة وينفذها، مثل ما يقولون (عبد المأمور).

وصلت الحالة أخيرًا، سنبدأ العمل الآن وكفى تلك الفلسفة التي سوف تلج بنا لنهاية نحن في غنى عنها.. ولكن لحظة، هل مضى من الوقت ساعتان وأنا أحدث نفسي؟! يا إلهي، كيف فعلتُ تلك؟.. ولكن، أفضل من كوني سأنتظر بدون جدوى وينتابني الملل، حسنًا، كفى جنونًا وهيا بنا للعمل.

.....

يوم الأربعاء، الساعة **5:00** عصرًا.

أمم، بعض التوتر وبعض الأرق وبعض الخوف وبعض التوتر مرة أخرى، وبعض من كل شيء. لن أنتهي اليوم بكوني لا أريد دخول تلك المشفى العقيمة، وأنا مثل الطفلة التي تخاف أن تسأل أحدًا عن طريقها الذي أضلته. حسنًا.. هيا يا إيفار استجمعي شجاعتكِ، لن يكون ما بالداخل أسوأ مما تمرين به، وإن كان أسوأ فلا يهم، فعندما صار يقود السفينة اثنان غرقت بهما معًا، وليس واحدًا والآخر نجا.

دخلت إلى المشفى وأكدت حجزي بها، وبالطبع واجهتني صعوبة كبيرة في التعامل مع المسؤولة وتأكيد حجزي في المشفى لعدم معرفتي التحدث بالألمانية، وولج ببالي أن أخبرها باسم الطبيب الذي سيشرف على حالتي بعد أن تذكرته بصعوبة كبيرة.

دخل دكتور إسلام علينا وبدأ يتفوه ببعض الحديث الذي لم أفهمه أنا، وكنت أقف بينهما مثل الطفلة التي عندما تتحدث في أحاديث الكبار يقال لها: لا تتدخلي يا صغيرة. انتهى الطبيب من محادثتها ووجه نظره لي، ومد يده لي مبتسمًا.

_ أهلًا بكِ، أنا الطبيب المشرف عليكِ من اليوم، اسمي إسلام، وبدون أي ألقاب ناديني باسمي، فالفترة التي ستبقينها هنا ليست بالقليلة.

أرعبتني تلك الجملة، ماذا يعني بكونها ليست قليلة؟.. هل يُعقل أن تطول أكثر مما توقعت؟

_ أرى أن وجهكِ ظهرت عليه معالم الحزن، لا تقلقي، ستبدئين بأسبوعين من العلاج، ثم يتم إجراء العملية، وبعدها شهرين علاج فقط وتعودين لأهلكِ، وأنتِ كلكِ صحة ونشاط. ولا تخافي، لست طبيبًا بليدًا، أنبؤكِ بشفائكِ من الآن.

_ حسنًا، شكرًا لك، ولكن هل سأقيم هنا في المشفى؟

_ بالطبع، ولا تخافي، جهزت لكِ جناحًا خاصًا بكِ، مجهز كي لا تشعري بجو المشفى أو ما شابه، وأريد منكِ أن تعتبريني بمثابة الأخ لكِ، كل ما تريدينه اطلبيه مني، وبإذن الله مجاب لكِ.

_ شكرًا لك على لطافتك تلك.

_ لا شكر على واجب، يا...

_ بالمناسبة، ما هو اسمكِ؟

_ اسمي هو إيفار.. إيفار.

_ حسنًا يا إيفار، هيا بنا إذًا لترَي غرفتكِ.

هززت رأسي بالموافقة وبدأت بالسير معه. لا أنكر كونه كثير الحديث وثرثارًا لدرجة أن عقلي كاد ينفجر من كثرة الحديث، لا يظهر عليه كونه طبيب، فهو يظهر عليه معالم الطفولة، افتقاده لشيء معين، ويريد أن يرى ذلك الشيء في أحدٍ معين. كلٌّ منا ينقصه شيء ويرغب في من يعوّض له ذلك النقص، لكن هو مختلف. أشعر أنه قادر على إشباع نفسه بطريقة ما، ويعوض نقصه بنفسه. شخصية غريبة وجميلة في نفس الوقت، وفي نفس الوقت ثرثارة للغاية.

_ كفى يا إسلام، كاد عقلي ينفجر، أنا لو زوجتك ما كنتَ لتحكي لي كل هذا، بالله عليك لا تقل إن هناك المزيد يا رجل.

_ أمم، أردت فقط إخراجكِ من جو المشفى وهكذا. أنتِ تعلمين ذلك الجو الكئيب، أنا نفسي أستاء منه، فأحاول أن أعوض نقصكِ بأنكِ بحاجة إلى موطنكِ بإلهائكِ عن جو المشفى وإشغالكِ بما قد يثير فضولكِ، فحديث الأمهات هذا لا ينتهي، أشعر أنني ورثت تلك الخصلة منهن.

_ وأنا أيضًا أرجّح ذلك يا إسلام، ولكن هل لي بقسطٍ من الراحة؟ فأنا لم أتم فرحتي بالسرير حتى، أريد النوم، أرجوك، ولنُكمل حديثنا غدًا.

_ حسنًا.. حسنًا، كنت سأتركِ من الأساس، لدي حالة أطمئن عليها، وأنتِ خذي قسطًا من الراحة وسأعود لكِ غدًا، تكونين بحالٍ أفضل ونبدأ في علاجنا ونكمل في قصة كيف ماتت خالتي.

هززت رأسي له بالإيجاب، وأظهرت ابتسامة له، خرج من الغرفة متبسمًا، وأشعر أنه أحس بالسعادة كثيرًا من ذلك الحديث الذي لم يدم كثيرًا. أحسست أنه استغل الوقت القصير في إنهاء مواضيع كثيرة.

المهم الآن، هناك شعور لا أستطيع تحديده، أول مرة في حياتي أدخل مشفى لأقضي فيها مدة من عمري لأتعالج من ذلك الشيء الشنيع بحق. لا أعلم، هل أنا خائفة؟ أم متوترة؟ أم يائسة؟.. أظن أنهم بالأحرى يعنون لي نفس الشيء نوعًا ما. كلام إسلام طمأنني، فهو لديه قدرة على سحب الطاقة السلبية بطريقة جميلة جدًا. أتمنى ألا تطول مدتي في ذلك السجن.

(18)

استقيظت في ذلك اليوم في تمام الساعة الثامنة صباحًا، كانت إجازة من العمل.

على غير عادتي ذهبت للمقهى الذي أجلس فيه دائمًا لأحتسي قهوتي وأحاول تصفية ذهني، فبالرغم من كون أن العالم أغلق جميع أبوابه أمامي، وما زال يقفل كل باب فتح بابه لي مرحب بي، ولكن القهوة تجعلني معزولًا عن العالم من الأساس.

ومن عادتي التي أحبها جدًا قراءة رواية، فبالنسبة لي أرى أن عالمي الخاص هو روايتي وقصتي الخاصة التي دمت وما زلت أدونها في ذاكرتي لأحكيها لأطفالي في المستقبل، فالفضول يجعلني ألقى نظرة على العوالم الأخرى والقصص الأخرى، وليس هناك نوع من الروايات معين مهيمن علي، فأنا أقرأ كل ما جاء في مخيلتي ولا أنتقد أية قصة من التي أقرأها أبدًا، فكل عالم من العوالم الأخرى تتميز بأشياء تجعل القارئ يشكر فيها وأشياء أخرى تجعل القارئ ينتقدها، في كل الأحوال لا يهمني انتقاد الناس لقصتي، فكل مرادي الآن شفاء إيفار.. وفي حين من شرودي في القهوة والقراءة وجدت قمر تقف أمامي مبتسمة ومقدمة يدها لي.

_ صباح الخير.
_ استيقظتِ مبكرًا على غير العادة، من عادتك الاستيقاظ في وقت متأخر.
_ صراحة أعرف أن يوم إجازتك تأتي إلى المقهى مبكرًا، أحببت أن آتي وأحتسي قهوتي معك ونتبادل أطراف الحديث إن لم يزعجك هذا الشيء.
_ لا لن يزعجني بالتأكيد فأنتِ مرحب بكِ في أي وقت.

ناديت على النادل المسؤول عن المكان وطلبت منه فنجان قهوة مضبوط، لأن قمر تشربها هكذا.

_ ما زلت تتذكر قهوتي وكيف أشربها.

شردت بعض الشيء في جملتها وأنا أتذكر تلك الذكريات.. ولكن كيف لي أن أنسى ذكرى لها من الأساس.

وكيف أن أنسى كيف قهوتكِ وكيف حالكِ فأنتِ من كنتِ تشاركينني دائمًا القهوة وما زلتِ هكذا تشاركينني إياها وكأن القدر اتفق أن لا أحتسيها إلا في وجودكِ، وفي حضرتكِ.

_ بالطبع أتذكر هذا شيئًا لا يُنسى.. هل حدثتِ إيفار البارحة؟

_ نعم حدثتها وسألتها عن حالها وأجابتني ببعضٍ من البهجة وأخبرتني أنها جيدة وطبيبها لطيف ويسير المعاملة مع مرضاه.

_ جيد كان الله في عونها.

_ لا تخف عليها ستكون في أحسن حال فقط ادعُ لها وسيكون كل شيء على ما يرام.

_ أتمنى ذلك حقًا يا قمر.

_ هل يمكنني أن أتحدث معك قليلًا على راحتي وأن لا تفهم قصدي خطأ؟

_ ومنذ متى أفهمك بطريقة خاطئة؟

_ هذا ما يطمئنني.. هل نسيتني يا مراد؟

سمعت سؤالها ولم أفهم ما حدث حقًا، وكيف لي أن أنساها؟.. وكيف لرجلٍ أحب بصدق أن ينسى من أحبها؟

وحتى إن أحببت غيرها تبقى ذكراها مخلدة في قلبي وإن كانت سبب تعاستي وقلة حظي وحزني، ولكن يبقى قلبي مشفقًا عليها حنونًا ينتظرها تأتي وتشكي له ليتكبد عناء فرط مشاعره تجاهها مرة أخرى، وأن لا يحزن على فراقها وينتظرها مرة أخرى، فكيف للعاشق أن ينسى معشوقته؟.. ولكن كفى ذلك الكلام الآن لم يعد في قاموسي، فأنا أحب إيفار.

_ هل تستغلين عدم وجودها لتوجهي لي مثل هذه الأسئلة؟

_ انظر!.. إذن فهمتني بطريقة خاطئة.

_ السؤال فحواه لا يدل على خطأ في الفهم بتاتًا هو سؤال عادي وجهته لكِ.

_ لست قاصدة عدم وجودها ولكن أحببت التحدث معك قليلًا وأعرف ما أريد معرفته فقط!!

_ وهل تريدين جوابًا على سؤالكِ إذن.

_ بالطبع وإن لم يزعجك ذلك الشيء.

رفعت عيني في عينها وصمت قليلًا مفكرًا فيما سأقوله ليس من الكلام الذي يسكن معالم عقلي، لا أبدًا، بل إني أختار الكلام الذي سأقوله كي لا أجرح مشاعرها، ولكن مثل العادة أخرجت ما في جوفي لها، فهو كان مكبوتًا منذ زمن.

_ وهل شككتِ من كون مراد من أحببتيه يمكن أن ينسى من الأساس؟.. هل قطع الشك باليقين أنني نسيتكِ؟.. أبدًا، ما حدث ولن يحدث، فأنا بحق كل دمعة جرحت من محجر عيني فأني أحبكِ وعلى حد علمكِ مازلت أحبكِ يا قمر، ولكن ليس ذلك الحب الذي سوف يكمل، لكن هو الحب الذي يبقى في الداخل لا يخرج ويبقى مكبوتًا لأنه الباقي لمحبوبته، فأنت هجرتني وأعلم أنه ليس بمحض إرادتك، ولكنك لم تحاولي مثلما

حاولت أنا، حاولت جاهدًا الوصول إليكِ، لم أكل ولا أمل أبدًا يا حبيبتي فكوني عاشقًا هو ما جعلني أحاول أولًا وآخرًا، وأنك تحبينني وأعلم أنك مازلتِ تحبينني ولكن لن يعد ذلك الشعور مفيدًا لكِ، قلت إني مازلت أحبكِ ولست أكذب ولكن على كل محب وكل ما أحب بصدق أن لا ينسى من أحبها ولو جاءت بخنجرٍ ورزعته في منتصف قلبه لا تظني يومًا أني تناسيت، ولن أنسى وستبقين ذكرى مخلدة في عقلي وقلبي، على قدر ما أحببتها، لكن ذكراك تبقى عالقة في قلبي، الذي أحبكِ بصدق، وأعلم أنك انفصلت وبحثت عني كثيرًا، وسألت أمي عني كثيرًا، أنا من كنت أخفي أخباري عنكِ لم أرد أن نعود كما كنا، مع أني كنت أتمنى ذلك بفارغ الصبر، لكني تيقنت أن هناك أخرى سوف تأتي وتأخذ مكانكِ، التجربة التي فشلت مرة فرصتها في الفشل في المرة الثانية تكون أكبر، وإن أحببت أن تبقى على ذكراي وتبقى تحبينني على أمل أن يجمعنا القدر، فهو حقكِ، لكن من وجهة نظري لا فائدة منه فأنتِ مطلعة على الحال الآن.

تبدلت ملامح وجهها لعبوسٍ شديد، وظهرت عليها معالم الندم بشدة وعيناها لمعت بالدموع وكادت أن تنفجر بكاء أمامي، لكني لم أترك لها فرصة للحديث، وضممتها إلى داخلي.

_ حسنًا أنا آسف على كلامي لكِ، اهدئي وكأن شيئًا لم يكن.

_ أنا التي آسفة على كوني جعلتك تشعر بكل تلك الأحاسيس، وأعلم بأنك أرهقت وحزنت بسببي كثيرًا، وتستحق أحدًا مثل إيفار، فهي من تقدر قيمتك.

همت بالرحيل ولم تترك لي مجالًا للحديث وتهدئتها.. بعض الشيء فقد ندمت على كلامي معها بتلك الطريقة وتمنيت كوني تحدثت من الأساس، ولكن ما باليد حيلة، لقد قيل ما قد قيل.

....

استيقظت من النوم أشعر بالتحسن بعض الشيء، سمعت صوت طرق الباب وبالطبع كان إسلام، أظن أنني سأقضي مدة مليئة بأحاديثه الطويلة التي أظن أنها لن تنتهي.

_ صباح الخير يا إيفار.

_ صباح الخير، هل نمتِ كل ذلك الوقت؟

_ لا لوم عليكِ فقد كنتِ متعبة جدًا ليلة البارحة وتركتكِ ترتاحين بقدر المستطاع، فقد جئت لكِ أملأ رأسك ببعض الأحاديث المملة خاصتي.

_ لماذا تقول هذا بحق هي ليست مملة بتاتًا، ولكن هل من أحد جاء وأعطاني دواء؟.. أتذكر أنني أخذت دواء.

_ نعم.. فقد جاءت الممرضة أعطتكِ الدواء وتركتكِ تكملين نومكِ.

_ أمم أشعر ببعض التحسن.

_ لا هذا ليس تحسنًا، فقط لأنكِ تريدين الشفاء السريع عقلكِ يوهمك بالتحسن وهذا شيءٌ رائع جدًّا.

_ حسنًا أرى أيضًا أنه جيد.

_ أمم هل أنتِ متزوجة؟.. أم مخطوبة؟.. أم مرتبطة بوجه عام؟

_ ما تلك الأسئلة الكثيرة، أشعر أنني في اجتماع على البحث لي عن زوج في حضرة أصحاب أمي - رحمها الله -.

_ هل والدتكِ متوفية؟

_ نعم، توفيا هي ووالدي منذ عامين، ومنذ ذلك الحين أعمل في شركة وعلى علاقة مع مديري في العمل، وهو أيضًا خطيبي.

_ أمم إذن أنتِ مرتبطة بأحد، هل تحبينه؟

_ وهل هذا سؤال يا إسلام، أشعر وكأنني أجلس أمام خالتي التي تحقد عندما يتقدم لي أحد.. ولكنني سأجيب على سؤالك، نعم أحبه وأحبه جدًّا أيضًا لا أستطيع وصف شعور حبي له.

لم أعلم لماذا تحول وجهه للعبوس التام، وأحب أن ينهى الحديث مبكرًا.

_ حسنًا سأعود لكِ بعد قليل هناك حالة في انتظاري يجب أن ألقي نظرة عليها، لن أتأخر.
_ حسنًا في انتظارك لنكمل الحديث سويًا.

رحل من الغرفة ومعالم الحزن ظاهرة على وجهه لا أعلم السبب، هل يمكن أن يكون أحبني، لا كفى تلك التراهات، لن يجدي معي من الأساس الأهم هو مراد.. أمم هل أكمل نومي أم أنتظره حتى يعود ليكمل حديثه، لكي لا يستاء مني أيضًا، صراحة أراه طيبًا جدًا على خلاف كونه طبيب من المفترض أن تظهر عليه علامات النضج، إلا أنه يشعرني وكأنني أتعامل مع طفلٍ صغير، حسنًا أظن أن قراري سيستقر على إكمال نومي.

****

(19)

لمَ أنا مستاء لتلك الدرجة، لمَ وضعت أملًا من بداية الأمر من الأساس، ولم أعلم هل أحببتها حقًا أم مجرد إيهامًا بوجهها الملائكي وشعرها الأسود المسترسل المائل للبني ووجهها الذي أحس أنه يشع نورًا، لماذا انزعجت؟

لا أظن أن القدر يحالفني ويقف في صفي، حتى عقلي لم يعد يستجمع ما يقوله من كلمات والبحث عن أفكار لأبرر بها موقفي، لأنني أنا الملام من البداية، لا أنكر حينما رأيتها، رأيتها جميلة وعندما سمعت اسمها، كان بمثابة شيء أطرَب مسامعي، لم أعهِد ذلك الاسم من قبل ولم أعهِد جمال من ينطق الاسم.

على أي حال ما زال الأمل يشع بصيصًا من النور، لماذا لا نقول إن القدر من الممكن أن يتغير لأجل رغباتي؟

أعلم أنني لست بتلك الأهمية ولست محور الكون لكي يتغير قدر شخص لأجلي، على كل حال القدر يصيب صاحبه مهما طالت الأيام والسنين، وأيضًا سخريته سوف تصيبك مهما أخذت حذرك منها، فهي

فوهة تسحل كل من اقترب منها وحاول تغيير تلك المعادلات الفيزيائية التي لا يفهمها سوى القدر نفسه، حفرته بالكامل تكمن في سخريته منك، تلك الحفرة التي تجر قدماك إليها عارجًا وزاحفًا رغمًا عنك، لكي تقطع حبل الشك باليقين فيصبح بصيص الشك الذي ظهر لوهلة وأخفيته وحاولت مخالفته، هو أكبر عقبة قد تقع فيها إن لم تقع، تلك الفوهة تشبه بحق فوهة المجتمع الجاهل، الذي يَسري وراء معتقداته الخاطئة ليست كلها بل أغلبها فنحن في مجتمع لو عانى أحدهم من الاكتئاب قالوا له الحياة لا تقف على أحد ويجارون أحاديثه ويظنونها مبالغة فيها ولكن على العكس تمامًا، فهم لم يجربوا ذلك الشعور، لذلك أقول من لم يمر بتجربتك لا حق له في مواساتك.

ولكن سخريّة القدر هنا تتجلى في البداية هل من الممكن أن تكون تلك إشارة لتغير ذلك القدر لأجلي؟

لا أرجح هذا ولكن لما لا، وهل قد أحببتها من الأساس؟.. لا أشك أيضًا في ذلك، القلب من الممكن أن يميل بين ليلة وضحاها وليس من المستحيل أن أحب دون أن أرى، فعندما تتجلى عاطفة القلب، ترى العقل صامتًا واقفًا يشاهد تلك المعجزات التي يمارسها القلب في الحياة، سواء كانت تعود عليك بالسلب أو بالإيجاب، لكن قلبك عندما يراك

استسلمت لقلبك يأخذ راحة لبرهة ويتركك تلهو مفسدًا وخارقًا كل القوانين وأما أن تنجح بفكر قلبك الغبي أو تفشل فشلًا ذريعًا يجعل عقلك شامتًا فيك.

أرجح في الأغلب خسارة القلب أمام العقل، فبرأي الأغلبية، يخسر القلب أمام العقل في ميدان الحرب، ولكن عند وحدة القلب وانفصاله عن العقل يطلق العنان لما أخفاه من مشاعر من الممكن أن تبدو للبعض شيئًا من المشاعر المفرطة ولكن في النهاية مجرد مشاعر يفرزها القلب ومجرد هرمون يفرزه العقل، لأن في تلك الحالة مهمة العقل الوحيدة إفراز الدوبامين.

كفى تراهات لقد فتحت باب قلبي الصدئ ذلك مرة أخرى، ألا يعلم ماذا حدث في المرة الأخيرة عندما تم فتحه، حقًا لا أحب تذكر ذلك.

سمعت صوت طرق باب مكتبي.

_ تفضل.

وجدتها إيفار مبتسمة لي وتتقدم إلي.

_ لماذا تركتني ولم تعد إلى الآن؟ هل الحالة أخذت كل ذلك الوقت معك؟

_ لا ليس كذلك ولكن أردت ترك لكِ بعض المساحة الشخصية وأن ترتاحي.

_ لا أريد الراحة فأنت خارج من عندي مستاء ولا أريد ذلك، أيا كان سواء كان بسببي أو لأي أسباب أخرى، هيا قم معي لتكمل حديثك الذي لا فائدة منه.

وجدتها تسحبني من ذراعي وتغمرها السعادة ومبتسمة مثل الأطفال بأفعالها الطفولية تلك، لم أتمالك نفسي أمامها، كانت في غاية الجمال وهي تقلد الأطفال، وفي تلك اللحظة أحسست بحق أن شعور الحب تجاهها صادق، فلقد انصعت لأوامره دون جدال.

_ حسنًا.. حسنًا سأأتي معكِ.

.....

ذهبت معها للغرفة، وبادرت هي بالحديث، وتحدثنا كثيرًا وكثيرًا، وحكت لي عن نفسها، وفي نفس الوقت حكيت لها عن نفسي، وتبادلنا أطراف الحديث، وأشعر بأنها قد أبدت بعض الراحة ناحيتي، وصارت على طبيعتها.

_ قل لي إذن، ماذا بك؟ لماذا خرجت من الغرفة مستاءً؟
_ لا تشغلي بالكِ، إنها مجرد تراهات يولدها مخي.

قلت تلك الجملة، وأنا أحاول إخفاء حزني على قولها في السابق، وأن لا فرصة لي، وأن لا مكان لي في قلبها، وأنني سأكون مجرد طبيبها، وانتهى كل شيء من بعد ذلك.

_ لا، هناك شيء تخفيه عني، هيا أخبرني، لا أحب الألغاز، أشعر بأنني غبية عندما يتحدث معي أحد بلغة الألغاز تلك، وأشعر بأنني حقًا غبية.
_ حاشا لله من قال إنكِ غبية، لا تشغلي بالكِ، فقط تذكرت بعض الأشياء من الماضي.

وبدأت آخذ راحتي، وأحدثها عن علاقتي السابقة والوحيدة التي دخلت ولم تخرج بعد، ولكن أظنها تخرج الآن ويتبدل مكانها أخرى، ولكن لا مكان لي أنا عندها، كانت مصرية أيضًا، كانت طبيبتي المساعدة، لذلك أنا مهووس بالفتيات المصريات، وأريد دومًا أن أقيم علاقة مع فتاة مصرية، وليس أجنبية، فتلك الفتاة كانت اسمها هاجر.

أحببتها بشدة، وأوهمتني أنها تحبني أيضًا، نفذت الدور بإتقان شديد، واتقنت لعبتها عليّ، لو قالت من البداية إن النهاية ستكون هكذا، ما منعت تركها، إن علمت أن سعادتها ستكون مع غيري، ولكن لم أكن أتمنى بصدق أن تتركني هكذا، ولماذا تنتظر يوم عرسنا وتتركني؟

نعم.. تركتني يوم عرسنا، وأنا في وسط الناس مثل الفأر الخائف البليد، لا أبدي أي رد فعل، ولم أفعل يومها سوى شيء واحد، أنغمرت عيناي بالدموع الثقيلة والحارقة.

_ أخبرني إذن، ماذا تذكرت؟ يمكن أن أساعدك على النسيان.
_ لا يمكن أن أنسى يا إيفار، فهذا أشبه بالمستحيل، وحتى وإن كانت هي من تركتني، لن أبدي لها الكراهية أبدًا، أحببتها صدقًا، وأبديت لها مشاعر صادقة بكل ذرة في قلبي، كانت جميلة مثلكِ، وكانت تشبهكِ أيضًا، كانت تلك الفترة بمثابة أفضل فترة في حياتي، ولكنها لم تكتمل، وتركتني يوم زفافنا، ولكني ما زلت أتذكرها وأكن لها بعض المشاعر وأحبها، ولكن أحاول تخطيها رغم صعوبة الموضوع.

_ آسفة لو كنت أعلم أن هذا هو الموضوع، ما كنت لأتحدث فيه من الأساس.

_ لا أثم عليكِ، فلم تكوني تعرفي الموضوع، ولكن لا شيء يزعجني الآن في الموضوع.

.....

مرّ أسبوعين من العلاج، كنا أنا وإسلام تتطور علاقتنا يومًا بعد الآخر، وحاولت ألا أزيدها عن علاقة صداقة، ولكني وجدت مصدر ذلك الإحساس بداخلي، الذي كان بعض الأحيان يقول لي إنني لا أحب مراد. فوجدت أنني مع الوقت أنجذب كثيرًا لإسلام وأشفق عليه جدًا، وأحسست أنه يكن لي بعض المشاعر ويحبني، ولكن لا أعلم ما سيحدث. من المفترض أن غدًا سيكون يوم العملية، أتمنى أن تمر على خير.

يوم الأربعاء، الساعة **10:00** صباحًا.

_هل أنتِ مستعدة؟ لم يتبقَ الكثير على رحيلك، العملية ثم العلاج، والعودة للوطن وأنتِ معافاة.

_لمَ أنت تضمن نجاح العملية من الأساس؟

_قلت لكِ في أول مرة: لست طبيبًا بليدًا لكي أفشل في عملية أجريتها مئات المرات.

_ولكن من الممكن أن تفشل، معدلات الفشل من الممكن أن ترتفع.
_ولماذا قد ترتفع؟ معدلات النجاح أعلى بكثير. لا تخافي وتفائلي بعض الشيء لكي تعودي وتتزوجي حبيبكِ.

سمعت جملته الأخيرة وصمتُّ، وهززت رأسي إيجابًا، ومن ثم إلى غرفة العمليات.

دخلنا لتلك الغرفة المشؤومة، والتي خفت أن أدخلها ولا أخرج منها، ولكن كلام إسلام طمأنني بعض الشيء.

لم أفق إلا بعد وقت لا أعلم مدته بالتحديد، ولكن الرؤية كانت مشوشة، ورأسي كان يؤلمني، ولكن بالرغم من كل ذلك، أنا الآن معافاة ولم يُصبني مكروه. ولكن، هل سأعود لمراد من الأساس؟ وهل زال شعوري تجاهه من قلبي أم ماذا؟ ولكن ما أشعر به الآن هو حي لإسلام فقط.

_لقد أصبحت مريضتنا الصغيرة في أفضل حال الآن.
_لا تقل "مريضة"، لا أحب ذلك التعبير الشنيع.
_حسنًا، أصبحت أميرتي بحال أفضل الآن.

صمتنا برهة من الوقت، ثم بادر هو بالكلام، ولم أتوقع يومًا ما قاله لي.

_لا أعلم من أين، لكن من قبل أن تأتي إلى المشفى هنا وأنا أفكر فيكِ، حتى قبل أن أراكِ وأعرف اسمكِ. شعرت بشعورٍ غريب تجاهك، وعندما رأيتكِ للوهلة الأولى شعرت بنفس ذلك الإحساس الذي أحسسته ناحية هاجر، ولكن أضعافًا مضاعفة لذلك الإحساس. لم أكن أعرف ماذا أفعل، كنت أحب جدًا أن أتبادل معكِ الحديث، وأن نجلس سويًا، وأسعد لسعادتكِ. المجمل هنا يا إيفار أنني أحبكِ، حتى لو كنتِ تكنين ذلك الشعور لشخصٍ آخر، ولكن لن يتحمل صدري أن يحمل الكلام بداخله دون قوله. آسف جدًا لتفوهي بتلك الكلمات، وسأرحل الآن وأتركِ تأخذين قسطًا من الراحة، وسأرسل لكِ الممرضة تعطيكِ العلاج.

_انتظر، لا ترحل. لا أعلم أنا أيضًا من أين أبدأ، ولكن من قبل أن أُصاب بذلك المرض اللعين من الأساس، كان يراودني شعور في بعض الأحيان أنني أحب شخصًا لا أعرفه ولم أره من الأساس، وكنت مشتتة جدًا بسبب ذلك الموضوع. ولكن كنت أقول: ترهات، وأضعها خلف ظهري لأكمل ما بدأته أنا ومراد، ولكن أظن أنه لم يكن ليكتمل. فأنت ظهرت، وأظن مرضي كان سببًا للقاءنا. إسلام، أنا أيضًا أحبك.

حقًا، وجدته أبدى لحظات من الصمت، وبدت عليه علامات الفرحة، ونظر للأرض، ورفع عينه لي باكيًا بفرحة شديدة، لم أرها قط في عين أحدٍ من قبل. ووجدته يعجل بالموضوع، ويقول لي إن بمرور الشهرين المتبقيين سنعلن زواجنا. وافقت بكل تأكيد على قراره ولم أعارضه، فأنا أيضًا رغبت في ذلك.

وصارت الأيام تمضي بيننا وتمر بسرعة، انتظارًا لليوم المنشود، وتزيد علاقتنا متانة يومًا بعد يوم، وصار هو من يؤجل مواعيده ليطمئن عليّ ويعطيني علاجي بنفسه، وصار يأخذني من المشفى لنأكل في مطعمٍ ما، فطعام المشفى جعل معدتي تجف. حتى جاء اليوم المنشود، وتزوجنا، وقررنا أن نقيم في ألمانيا، وكنت قد تناسيت مراد من الأساس، ولكن أخبرت قمر بكل ما دار معي، وأردتها أن تمهد الموضوع لمراد.

_ما بك يا عزيزي؟ أنت تبكي في لحظات السعادة والحزن معًا؟
_ماذا تريدين مني أن أفعل إذن؟ كيف لا أبكي وأنا أقف مع من أحبها قلبي بكل ذرة بداخله؟

احتضنته وعدنا إلى بيتنا الجديد لنبدأ حياتنا الجديدة.

****

(20)

لم أفهم حقًا لماذا فعلت ذلك بمن أحبها بصدق، وبماذا انتهى به المطاف مرة أخرى... بخيبة أملٍ ذريعة. تحبه وتزوجت غيره عمدًا منها على ذلك! لا أعلم، أشفق عليه أم ماذا أفعل؟ هل أخبره أم لا؟

حسنًا، سأذهب إليه، لا خيار آخر غير ذلك.

ذهبت إلى المنزل وأنا على عجلةٍ من أمري، وفي نفس الوقت أبطئ حركتي، لا أعلم ماذا سوف يحدث إن أخبرته بما حصل في فترة غياب إيفار عنّا.

_افتح يا مراد، أنا قمر.

وجدته قد فتح لي الباب على غير العادة، فقد كانت والدته هي من تفتح لي الباب دائمًا، ووجدته واضعًا رأسه بين كفيه، وكامل جسده يهتز ويرتجف، وصوت بكائه يعلو أكثر فأكثر، فلم أعلم ماذا أفعل، ولم يكن في يدي شيئًا وقتها غير أن أسأله عن سبب ما يحدث.

_مراد، ماذا بك؟ لماذا تبكي وترتجف هكذا؟

أعطاني ورقة مطوية، وكانت رسالة من والدته، وكان محتوى الرسالة كالآتي:

(بُني، لا تقلق عليّ، سوف أرحل لبعض الوقت عنك، وسأتركك، وأعلم أنك ناضجٌ كفاية لتعيش وحيدًا، فقد عشتَ وحيدًا حتى في وجودي معك، وفي القريب العاجل إن شاء الله ستعود إيفار وستتزوجا وسأعرف أنا.
أتمنى أن تكون لك مثلما تخيلتها أنت، لا أنكر أنها فتاة طيبة وجميلة، ولكن خذ حذرك دائمًا من كل ما هو جميل ولطيف.
أعلم أن أول سؤال سوف يجول ببالك هو: لماذا تركتك ورحلت؟
ستعرف تلك الأسباب في الوقت المحدد لمعرفتها، وليس الآن. فقط ركز على حياتك ولا تشتتها.
تعرف؟ كانت رغبتي أن تتزوج قمر، بالمناسبة، هي ما زالت تحبك، لكن لا تريد أن تجعلك تعيسًا وأنت تبتعد عن من أحببتها من بعدها، وتتمنى لك كل حياةٍ سعيدة حقًا، وأنا أيضًا أتمنى لكم جميعًا حياةً سعيدة، وسأعلمك بأخباري كل فترة، لا تخف عليّ، سأكون في مأمن).

والدتك الحبيبة.

لم أكن أعلم ماذا عليّ أن أفعل، لكنني تناسيت إيفار وقتها من الأساس، وهممت أن آخذ مراد ونقدم بلاغًا في قسم قصر النيل عن تغيبها، ولكن عندما ذهبنا أخبرنا الضابط هناك أنه يجب أن يمر على اختفائها ثمانية وأربعون ساعة كي نقدم بلاغ اختفاء.

انتظرنا حتى مر اليوم التالي وذهبنا لنقدم البلاغ مرة أخرى، وبدأت الشرطة في التحقيق في الموضوع، وظلوا أيامًا يحققون، ولم نتلقَ أي اتصالات أو أخبار عن البلاغ الذي قدمناه. ولكن بعد أسبوعين من تقديم البلاغ، وجدنا الضابط المسؤول عن القضية يتصل ويخبرنا أنها ماتت في حادث سيارة بالقرب من كورنيش قصر النيل، وانقلبت السيارة وذهبت جثتها في النيل، واختفت مثل الرماد، ولم يبقَ لها أي أثر.

سمع مراد الخبر من هنا، وألقى عينه في الأرض، ثم همّ بالسؤال عن إيفار:

_أين إيفار؟ أليس من المفترض أن مدة علاجها قد انتهت وتماثلت للشفاء؟

_مراد... أريد إخبارك بشيء ما يخص إيفار.

_قولي ما في جوفكِ.

_إيفار، وهي بالخارج، قامت علاقة حب بينها وبين الطبيب المشرف على حالتها، ونشب بينهما شعورٌ متبادل، وهي قد أحبته، وعندما أجرت العملية وانتهت مدة العلاج، أقاما حفل زفافهما، وهما الآن يعيشان في ألمانيا.

نوعًا ما، قمت بلوم نفسي عما تفوهت به، فلم يكن ذلك هو الوقت المناسب الذي أتفوّه فيه بذلك الكلام الأحمق، ولكن ما باليد حيلة، شئت أم أبيت كان سيعرف لا محالة، والمصير واحد في كل الأحوال.

_ماذا تقولين؟ وماذا عني؟ ولماذا فعلت كل ذلك من الأساس؟ لماذا أوهمتني بحبها؟ كل هذا كان كذبًا؟

لماذا فعلتِ ذلك يا إيفار؟ ألم تعلمي أني أحببتكِ بصدق؟ أم أنكِ أردتِ اختبار حبي لكِ؟ هي تختبر حبي لها، صحيح؟ أليس ذلك ما تقصده؟ وأنها سوف تعود لي الآن ولن تتركني وحيدًا؟ أليس ذلك ما تقصده؟

لا أعلم ما كان يتوجب عليّ فعله، فهو الآن في حالة من الإنكار التام لما يدور حوله من أحداث، ولكن لم أعرف أبدًا ما الذي يجب أن يتم

فعله، ولكني مددت ذراعي إليه، وبفعل صدمته هرول إلى داخلي، وأكمل بكاءه كطفلٍ صغير تاه من أمه ولا يجد مأوى أو شيئًا ليفعله.

نظرت إليه بعد أن سكت نواحه وبكاؤه، فوجدت قاطعًا للنفس ولا يبدي أي حركة. هرولت بالاتصال بالمشفى القريبة منا، وجاؤوا وأخذوه، وذهبت معه في العربة التي جاءت لتنقله للمشفى، وكنت قلقة جدًا عليه، لم يهم كل ما حدث، ولا إيفار ولا غيره، المهم الآن ألا يصيبه مكروه، فهو صار أملي في الحياة، وليس لي غيره، وأنا سأبقى بجانبه، لكن يجب أن يبقى في حالة أفضل، لا يجب أن يصبح مريضًا، فأنا بدونه لا شيء.

وصلنا للمشفى، ودخل وبقي في الغرفة مع الطبيب ساعات لم أعدها، ولكني بقيت جالسة على أرضية المشفى وأنا أنتظر ظهور الطبيب لأعلم ما أصابه. ولكن عندما خرج الطبيب، نزل الخبر عليّ مثل الصاعقة، ومن بعدها لم أتمالك نفسي.

_أستاذة قمر، أنا آسف لما سأقوله، لكن أستاذ مراد دخل في غيبوبة، ولا نعرف مدتها وإلى متى ستطول. إن أردتِ الدخول إليه، لا مانع، وإن أردتِ توفير غرفة هنا للبقاء معه، لا مانع أيضًا.

لم تمر تلك الكلمات على مسامعي مرور الكرام أبدًا، فقد كانت مثل صاعقة سقطت من السماء عليّ. لم أتمالك نفسي، ثم سقطت، ولم أعرف ما دار حولي من بعدها. شعرت أني انقطعت عن العالم وذهبت لعالمٍ آخر، رأيت فيه مراد معافى ويمارس حياته الطبيعية، وأنا واقفة مجمدة لا أستطيع التحدث أو الحراك حتى، وكل ما أفعله أنني أنظر إليه مبتسمة فقط... لا أكثر.

استيقظت من غيبوبتي التي لم تدم إلا بضع ساعات، ومنذ أن استيقظت وأنا أهرول بالسؤال فقط عن مراد وعن أحواله، وكيف حاله، وهل هو بخير أم لا؟

_ يمكنكِ أن تذهبي لغرفته للجلوس معه، ومرافقته في المشفى طيلة فترة غيبوبته.

طالت فترته وأنا باقية معه ولا يغفل جفن، حتى إنني في تلك الفترة لم أعد أنام كثيرًا وقلت ساعات نومي، أبقى طيلة الليل والنهار ناظرة له، منتظرة منه أن يستيقظ أو يقوم بأي حركة تعلمني أنه ما زال بخير، وأنه سيتيقظ قريبًا، ولكن كل شيء بلا جدوى.

يمر الوقت، واليوم صار أسبوعًا، صار شهرًا، وطالت المدة في المشفى حتى وصلنا إلى ستة أشهر في المشفى، حتى جاء ذلك اليوم، ووجدته يتقلب، ويفتح عينه ببطء شديد، ويلقي نظرة على ما حوله، ثم نظر لي وقال:

_ لماذا نحن هنا، وكم بقيت هنا من مدة؟

_ أخيرًا استيقظت يا عزيزي، لا تشغل بالك بأي شيء فأنت في المشفى وداخل في غيبوبة دامت لستة أشهر متواصلة، ولكن حمدًا على سلامتك الآن.

_ هل يمكن لنا أن نرحل الآن؟

هززت رأسي له بالإيجاب، ثم أعلمت الطبيب أنه استيقظ، وكتب له بعض الأدوية، ثم رحلنا في ليل ذلك اليوم، وذهبت معه للمنزل لأوصله، ثم أرحل.

_ حسنًا سأرحل أنا وسآتي إليك غدًا لأُطّلع عليك.

_ انتظري، أريد إخبارك بشيء.

_ حسنًا تفضل، أنا منصتة لك.

_ أنا آسف، لأني وجدتك تعودين أمامي وفرصة عودة من أحببتها أمامي وأهملتها، أنا ما زلت أحبكِ، وأعلم أنكِ سوف تسامحينني ولن تقسِي عليّ، فأنتِ صاحبة قلب رقيق لا يظلم أحدًا.

_ وهذه مشكلتي أني صاحبة قلب لا يظلم أحدًا، وللعلم ما زلت أحبك وبشدة أيضًا، ولكن لا تندم على شيء مرّ عليك، فكلها أقدار يا عزيزي، منها من يصيب وتصبح أفضل الصدف والأقدار، ومنها من يخيب وتصبح سخرية القدر، كلها بالتجربة يتخذ المسمى، سآتي إليك غدًا لا تقلق، اذهب واخلد للنوم.

هزّ رأسه لي بالإيجاب وهو يبتسم، ثم اقترب مني وهو يحتضنني بشدة ويبكي أنه جاء على قلبي وقسى عليّ، ولم يكن لي منذ أن أتيحت له الفرصة، ولكن لا بأس.

ذهبت له في اليوم الآخر، وصارت زيارتي تتردد عليه، وعادت علاقتنا متينة مثل السابق، وعدنا نحب بعضنا أكثر من بداية الأمر، وانتهى بكونه معلنًا عما يسكنه بالكامل، وبرغبته أن نُتم زواجنا، وأن نجعل القدر يقف في صفنا ولو لمرة واحدة، وصار كل شيء جيدًا، وتم الزواج، وعيشنا حياة سعيدة خالية من الضغوط في منزله، وحللت مكان إيفار في العمل، وانتهت معاناتنا مع القدر والحمد لله، وأنا الآن أحمل في بطني طفلًا من مراد، سيتربى ويتربع معه، وسيكون لي ابنًا منه، هذا ما تمنيته دائمًا وأبدًا، واليوم صارت لي عائلة.

الحقيقة

_لقد أصبح في حالة يُرثى لها، لا أعلم ماذا يجب أن أقدّم له لكي يستيقظ.

_ كل شيء بيد الله يا سيد عبد التواب، الآن ابنك بين يدي الخالق.

_ كل هذا بسبب تلك الفتاة التي تُسمّى إيفار، أوهمته بحبها وذهبت وتزوجت غيره، وحتى قمر ماتت منذ أول شهرين في غيبوبته بسكتة قلبية، وأمه لا نعلم مكانها إلى الآن، يا للأقدار التي تصنع منّا أشخاصًا لا يجب أن نكونهم.

نعم.. ماتت قمر، وإيفار تحظى بحياة سعيدة مع زوجها، وأمي لم تمت لكن لا نعلم مكانها، وأنا الآن مجرّد نائم على فراشٍ الله أعلم هل سأستيقظ من عليه أم سأبقى عليه وأُقام من عليه رفعًا.

كل شيء ساد في وجهي، ولا أحد يشعر بي، وكل شيء صار مجرد هباءٍ منثور، لم أتخيّل أن يحصل ذلك في يوم من الأيام، ولكنه حدث، وقد حدث ما حدث.

دخلت إيفار وزوجها المشفى، لأنها أشفقت عليّ بعض الشيء وتريد أن تطمئن عليّ، رآها أبي وذهب لها وبدأ في نهرها وتوبيخها.

_ وهل لكِ عين أن تأتي إلى هنا من الأساس؟ ومن طلب منكِ المجيء بعد الذي فعلتهِ في ولدي؟ جعلته ميتًا وهو حيّ!

_ أنا آسفة، ولكن هذه مجرد أقدار، وهذا قدري وقدره.

أكمل أبي توبيخها، ثم أدارت إيفار ظهرها لأبي ورحلت، ولكنها لم تُكمل حياتها بعد أول خطوة أخذتها وهي ذاهبة خارج المشفى، فهناك رصاصة أصابت رأسها آتية من أحد نوافذ المشفى، وعند تلك النقطة انتهت حياة إيفار، وكان ذلك قدرها، وتوقّف نبضي تمامًا بعدها، وتم إعلان موتي بعدها.

(مجهول) لم يكن ليمرّ مرّ الكرام أبدًا.

"تمت بحمد اللّه"

الخاتمة

ليس كل ما نحبه سوف يبقى معنا، على الأغلب يجب أن يتم اختبارك في أكثر الأشياء التي تحبها، وهنا أُخذ كل شيء وانتهت بموت كليهما. ليس القدر حليفًا أبدًا، فأنت لست متحكمًا به، بل هو المتحكم الأول بك.

لا تنسَ ذلك أبدًا.

****

شكر خاص

شكر خاص إلى أمي التي ساعدتني على إتمام ذلك العمل، وإلى جيسكا التي سمعتني وعاونتني على إتمامه رغم كونها بعيدة الآن، وإلى أصدقائي:
عبد المعطي خالد
فهد وليد عمر

****

dewanalarabegypt@gmail.com

01030502390

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.